DR. SHARIF RAGHIB ALAWNEH

أصداء الغزوين الصليبي والمغولي في شعر الشهاب محمود الحلبي

(644 -725 هـ)

الدكتور

شريف علاونه

جامعة الملك فيصل بالأحساء

دراسات أدبية ونقدية





أصداء الغَزْوَيْن

الصّليبيّ والمغوليّ

في

شعْر الشّهاب محمود الحَلبيّ

(٦٤٤- ٧٢٥هـ)

الدكتور شريف علاونه

Dr. Sharif Raghib Alawneh

دراسات أدبية ونقدية

أصداء الغَزْوَيْن الصّليبيّ والمغوليّ في شِعْر الشّهاب محمود الحَلَبيّ

(٦٤٤- ٧٢٥هـ)

تأليف

الدكتور شريف علاونه

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(2010/1/111)

811.9

علاونة، شريف راغب

أصدقاء الغزوين الصليبي والمغولي في شعر الشهاب محمود الحلبي

[644-725 هـ]/ شريف راغب علاونة

عمان: دار جليس الزمان 2010

ر. إ: [2010/1/111]

الواصفات: الشعر العربي // النقد الأدبي // التحليل الأدبي

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

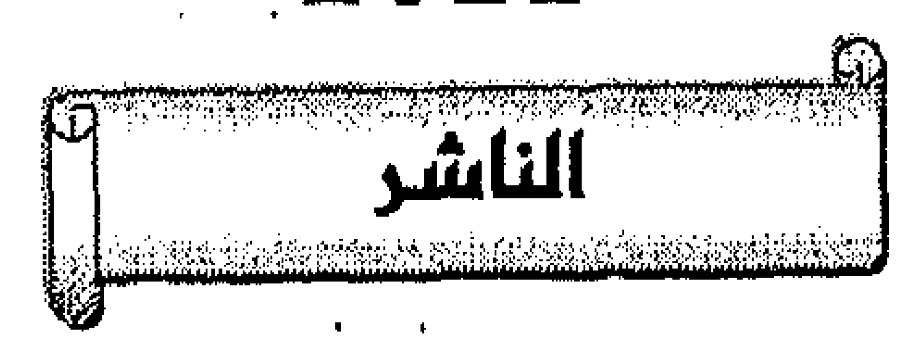
ISBN: 978-9957-81-085-6



يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى

2011



دار جليس الزمان للنشر والتوزيع

شارع الملكة رانيا – مقابل كلية الزراعة – عمارة العساف – الطابق الأرضي، هاتف: 5343052 009626 – فاكس: 0096265356219

إهداء

إلـــــى ابنتـــي آلاء...

لتفوقها في مدرستها....

المحتويات

الفصل الثالث
ظواهر فنيـــــة
في شعره الجهادي

الفصل الرابع
ملحق
أشعاره الجهادية

مقـــدّمة

تعرّضت ديار الإسلام في مشرق العالم الإسلامي لغزو صليبي في القرنين السادس والسابع الهجريين، الموافقين للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وكان تحديداً بين سنتي ٤٩٠هـ و ٦٩٠هـ، وهو غزو أوروبي استعماري استيطاني، وقد سمّاه المؤرخون الأوروبيون الغزو الصليبي، وسمّاه معظم مؤرّخي المسلمين غزو الفرنج. وتعرّضت ديار الإسلام أيضاً في العراق والشام لغزو مغولي في القرن السابع للهجرة، وذلك عندما توجّه المغول بقيادة " هولاكو" إلى بغداد لاحتلالها، حيث سقطت بأيديهم في أوائل سنة ٦٥٦هـ.

لقد انعكست أصداء هذين الغزوين في الشعر العربي آنذاك، فصوّر الأحداث والمشاعر والأحاسيس، وذلك في شعر الدعوة إلى الجهاد، ووصف المعارك، والتغني بالانتصارات، ومديح القادة الأبطال ورثائهم، ورثاء المدن التي كانت تسقط بأيدي الغزاة، وغير ذلك من موضوعات.

ويحاول هذا البحث أن يلقي أضواء كاشفة على جانب من جوانب الإنتاج الأدبي لواحد من أعلام الأدب في القرنين السادس والسابع الهجريين، إنه الشهاب محمود الحلبي (٦٤٤هـ - ٧٢٥هـ)، الذي اشتهر في عصره، بل وفي تاريخ الأدب العربي، بكونه واحداً من أعلام كتّاب ديوان الإنشاء في دولة المماليك الأولى.

ولم يكن الشهاب محمود بعيداً عن تيارات الحياة العامة في عصره، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كان في قلب الأحداث؛ إذ كان يتولى منصب رئيس ديوان الإنشاء، وهو منصب كبير من المناصب المدنية في الدولة آنذاك.

ويبدو أن شهرة الشهاب محمود في ميدان الكتابة النثرية قد غطّت على شاعريته، لذلك عُرف عند الدارسين والباحثين بأنّه من الأدباء الكتّاب، على الرغم من غزارة شعره وجودته.



وموضوع بحثنا هذا يركز على زاوية واحدة من زوايا إنتاجه الأدبي المتعددة وهي شعر الشهاب محمود المتأثر بالغزوين الصّليبي والمغولي، والمرتبط بهما ارتباطاً مباشراً، ومن ثمّ كان عنوان البحث " **أصداء الغَزْوَين الصّليبيّ والمغوليّ في شِعْر الشّهاب محمود الحلبي**". أمّا نثره، وشعره في غير موضوع بحثنا، فقد نخصّص له دراسة في قادم الأيام.

وقد يقال لماذا خُصّ الشهاب محمود دون غيره من شعراء تلك الفترة، وهم كثيرون؟ والجواب: إنّ موجبات اختيار الشهاب محمود كثيرة، منها:

١. إنّ الشهاب محمود لم يحظ بما حظي به غيره من عناية الباحثين والدارسين، وقد يكون لعدم وصول شعره مجموعاً في ديوان شعري أثر في ذلك، فلم يقم أحد – فيما نعلم – بدراسة حياته وإنتاجه الأدبي.
٢. إن شعر الشهاب محمود المرتبط بالغزوين: الصليبي والمغولي لم يلق شيوعاً على ألسنة الناس، على الرغم من الحوادث الكبار المرتبطة به. فقصيدته البائية في فتح عكا سنة ٦٩٠هـ لا يُعرف عنها الكثير، على الرغم من أنّها أقرب إلى الملاحم التي سطّرت المعارك الحربية والبطولات الإسلامية في عهد سلاطين المماليك، ولم تألف أسماع الكثيرين من مثقفينا أبياتها، أو بعض أبياتها، التي تجاوز عددها ستين بيتاً، ومطلعها[1]:

الحمدُ لله زالت دولة الصُّلُب   وعزّ بالتُّرْك دين المصطفى العربي

والانتصار في عكا لا يقل في أهميته عن الانتصار في معركة (حطين)، ومعركة (عين جالوت) وغيرهما من المعارك الإسلامية الخالدة. فعكا فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، ثم عاد الفرنج واستولوا عليها سنة ٥٨٧هـ، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ، أي بعد ما يزيد عن مائة عام.

---

(١) انظر القصيدة كاملة ص ١٣١-١٣٣ من بحثنا هذا.

وإذا كان الانتصار في معركة حطين، قد أدى إلى سقوط مملكة بيت المقدس التي أقامها الغزاة الصليبيون، وتخليص المقدسات الإسلامية من أيديهم. فإن الانتصار الحاسم في معركة عكا – وهي آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام – كان نهاية لغزو صليبي استيطاني، استمر ما يزيد على قرنين من الزمان. وبفتح عكا رُعِب الفرنج بالساحل فاستولى السلطان على صور، وصيدا، وبيروت، وعثليث، وأنطرطوس وجبيل، وصرفند، وغيرها. وبفتحها طويت صفحة سوداء في تاريخ الحروب الصليبية، وفتحت صفحة جديدة مشرقة في قصة الصراع الطويل بين المشرق الإسلامي والغزاة الصليبيين الوافدين من الغرب.

٣. قدّر للشهاب محمود إبّان سنيّ حياته الثمانين أن يشهد بدايات الغزو المغولي الهمجي، وبداية انحسار الغزو الصليبي الحاقد ونهايته. وكلاهما كان غزواً كلّف العرب والمسلمين دماءً وأرواحاً يصعب حصرها. والأحداث يُذكّر بعضها ببعض، فنحن اليوم في مواجهة غزو صهيوني استيطاني، لا يقلّ في حقده وهمجيته عن حقد الغزاة من الصليبيين والمغول وهمجيتهم بالأمس.

٤. وتأتي أهمية هذا البحث من أنه – كما أسلفنا- يسلط الأضواء على زاوية واحدة من زوايا الإنتاج الشعري المتعددة عند الشهاب محمود الحلبي، وهي شعره الجهادي، الذي واكب أحداث الغزوين: الصليبي والمغولي، لعل هذه الأضواء تكشف لنا عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين وسم بهما الأدب في تلك الفترة.

وجاء هذا البحث موزّعاً على ثلاثة فصول، تحدّثت في **أوّلها** عن حياة الشهاب محمود: اسمه ونسبه، وصفاته وأخلاقه، وثقافته، وصلته برجالات عصره، ومؤلفاته ونتاجه الأدبي، ومنزلته الأدبية، ووفاته.

أمّا **الفصل الثاني** فهو لدراسة بعض الظواهر الموضوعية في شعره الجهادي، مثل: تمجيد البطولة، ووصف المعارك، وصورة العدو في شعره الجهادي، وشعر المديح النبوي في موكب شعر الجهاد... وقد لاحظ الباحث غياب شعر رثاء الأبطال

ورثاء المدن في شعره الجهادي، وكأنما وجد الشاعر في هذا الرثاء ما يدل على ضعف واستكانة لا يليقان به وبشعره، الذي مضى يصوّر فيه بطولات الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، وابنه الأشرف خليل، وغيرهم ممن اضطلعوا بالدور الأكبر في مقاومة الغزوين الصليبي والمغولي، وأحرزوا انتصارات في معاركهم مع الأعداء من صليبين ومغول.

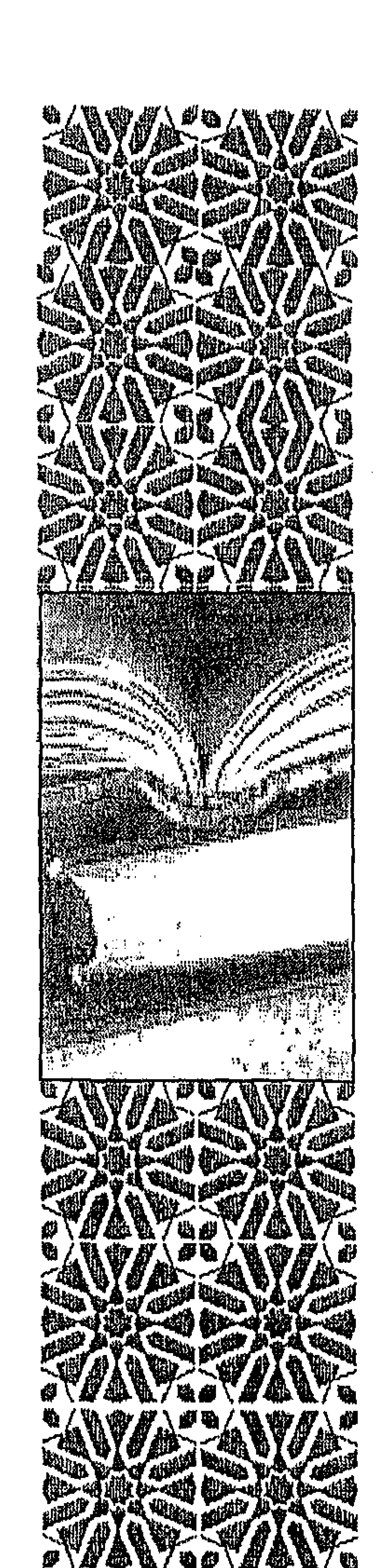
وفي **الفصل الثالث** تناول البحث ظواهر فنية في شعره الجهادي، فتحدَّث عن بناء القصيدة الجهادية، وظاهرة الانجذاب إلى التراث، مما جعله يحاكي أبا تمام والمتنبي في شعرهما الحربي. وتحدّث عن عناية الشاعر بفنون البديع وشغفه بالمحسنات البديعية من جناس وطباق واستعارات واقتباسات، متأثراً في ذلك بالذوق الأدبي الشائع بين معاصريه، وبمقاييسهم الأدبية.

وكان مسك الختام في هذا البحث عن الشهاب محمود وشعره الجهادي ملحقاً بقصائد الجهاد والمقاومة، حتى يتاح للقارئ والباحث الاطّلاع عليها عن كثب، لعلها تسهم في شيوع هذا الشعر على الألسنة، ويكون له اليوم، كما كان له بالأمس، دور كبير في استنهاض الهمم، وإثارة العزائم. وعسى أن يسهم هذا البحث في إبراز صورة لشاعر لم ينل قسطاً - ولو ضئيلاً - من البحث، ولعلّه يكون حافزاً لأبحاث ودراسات أخرى تتناول نثر الشهاب محمود، وأغراضه الشعرية الأخرى.

وإذا كان لا بد من كلمة في الختام، فإنني لا أبرئ ما قمت به من نقص أو خلل، وتلك طبيعة ما يقوم به البشر. وصدق جلّ وعلا: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

ولله الحمد أوّلاً وآخراً

الدكتور شريف راغب علاونه



الفصل الأول

الحيـــــاة

- اسمه ونسبه
- صفاته وأخلاقه
- ثقافته
- في ديوان الإنشاء
- صلته برجالات عصره
- مؤلفاته وإنتاجه الأدبي
- منزلته الأدبية
- وفاته

اسمه ونسبه:

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود ابن الشيخ زين الدين، أبي الغنائم سليمان بن فهد الحلبي، ثم الدمشقي، المعروف بالشهاب محمود[1]. ويضيف ابن حجر العسقلاني (محمود) بعد (فهد)[2]، وتابعه في ذلك الزركلي[3]. أمّا أبوه فهو (سليمان) عند بعضهم[4]، و(سَلْمان) عند آخرين[5].

وتنسبه المصادر إلى مسقط رأسه، ومكان ولادته (حلب)، فتقول: "الحلبيّ". ويضيفون نسبته إلى مدينة المنشأ (دمشق)، فيقولون: "الحلبي ثم الدمشقي". وعلاقة الشاعر بدمشق بدأت حوالي سنة ٦٥٤هـ، عندما انتقل إليها صبياً مع أبيه، ليأخذ عن علمائها، وهو في العاشرة من عمره[6]. وانفرد صاحب "ذيل وفيات الأعيان" بنسبته إلى "مِصْر"، حيث عمل زمناً في ديوان الإنشاء، فقال: "محمود شهاب الدين أبو الثناء المصري"[7].

(١) ورد نسبه على هذه الصورة في أكثر مصادر ترجمته.

(٢) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤، والبدر الطالع: ٢/ ص٢٩٥.

(٣) الأعلام: ٧/ ص١٧٢.

(٤) النجوم الزاهرة: ٩/ ص٢٦٤، وذيل وفيات الأعيان: ٢/ ص٣٢٦، وشذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، والغيث المسجم: ١/ ص١١٤، ونهاية الأرب: ٣٣/ ص١٤٥، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ٣/ ص٨٦.

(٥) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٤، وفوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، ومن ذيول العبر: ص١٤٠، والبداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤، والأعلام: ٧/ ص١٧٢.

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ص٣٧٨.

(٧) ذيل وفيات الأعيان: ٢/ ص٣١٢.

ولا تناقض في ذلك، فقد ارتبطت حياته، كما سيتبيّن في الصفحات اللاحقة بهذه البلدان جميعاً. وارتباط اسم الشاعر بهذه البلدان الثلاثة لا يعني أنه لم يطوّف بغيرها من بلدان الشام ومصر، وإنما يعني فقط أنه كان لهذه البلدان دور خاص في حياته.

ويكاد يُجمع مترجموه على أنّ مولده كان سنة ٦٤٤هـ في مدينة (حَلَب)، ولكن ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) - وهو قريب عهدٍ بالشهاب محمود زمنياً - ذكر أنّ مولده كان بدمشق[(١)]، وهو سهو منه، فإنّ جميع المؤرخين والأدباء نعتوه بـ " الحلبي"، وعباراتهم صريحة بأن مولده كان في (حلب).

ونجد من المحدثين: عمر فروخ[(٢)]، وعمر موسى باشا[(٣)]، وشوقي ضيف[(٤)]، يتابعون ابن شاكر الكتبي، ويذكرون أنه ولد في دمشق.

وعلى الرغم من شهرة الشهاب محمود، إلاّ أن مصادر ترجمته لا تذكر لنا شيئاً كثيراً عن أسرته، سوى ما لممنا شتاته مما عثرنا عليه مبعثراً هنا وهناك. فأبوه لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه – كما ذكرنا – زين الدين أبو الغنائم سلمان، أو سليمان، وكان فقيهاً حنبلياً، عني بتربية ابنه مما جعله يحفظ القرآن صبيّاً[(٥)].

أمّا أبناؤه فيبدو أنهم كانوا كثيرين، وكان يقال لهم: "بنو الشهاب محمود"[(٦)]، وكانوا أدباء عملوا في دواوين الإنشاء، وتذكر المصادر منهم: ابنه شمس الدين أبا عبد الله محمداً، الذي خلف أباه في كتابة السر بديوان الإنشاء بدمشق سنة ٧٢٥هـ[(٧)]،

---

(١) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص٧٣٥.
(٣) تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي): ص٤٨٦.
(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الشام): ص١٥٨.
(٥) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٤، وعصر الدول والإمارات (الشام): ص١٥٨.
(٦) البداية والنهاية: ١٣/ ص٢٦١.
(٧) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٢، ص١٥٤.

وتوفي فيها سنة ٧٢٧هـ[١] عن ثمان وخمسين سنة[٢]، أو ثلاث وستين سنة[٣]. وأورد القلقشندي كتاباً من إنشائه، عندما كان في ديوان الإنشاء بحلب[٤]. ولمحمد هذا ابن هو شرف الدين استقر في التوقيع بين يدي نائب السلطنة بعد وفاة والده، كما ذكر النويري[٥].

ويتحدث صاحب " تذكرة التنبيه" عن حوادث سنة ٧٤٤هـ، فيقول:" وفيها ولي جمال الدين أبو إسحق إبراهيم بن شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي صحابة ديوان الإنشاء بحلب، وهي ولايته الثانية"[٦]. أما ابن تغري بَرْدي فقد ترجم لجمال الدين هذا في كتابه " المنهل الصافي" وذكر أن مولده سنة ٦٧٦هـ، وأنه سمع من والده، ومهر في الكتابة وولي كتابة سرّ حلب، وباشرها ثلاث مرات، نيّفاً وعشرين سنة، وكان له النظم الرائق، والنثر الفائق، باشر كتابة سرّ حلب، ووالده كاتب سرّ دمشق، وتوفي بحلب سنة ٧٦٠هـ[٧].وذكر الصفدي أنه عمل بديوان الإنشاء بالديار المصرية[٨].

ويذكر صاحب " تذكرة النبيه" اسم ابن ثالث للشهاب محمود هو المولى الإمام بهاء الدين، وكان شاعراً[٩]. ويكنى الشهاب محمود بأبي (الثناء)، ولا ندري إن كان له ابن بهذا الاسم، أم أنها – على الأرجح– مجرد كنية اشتهر وعرف بها.

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ٣/ ص١٠٣.

(٢) نهاية الأرب: ٣٣/ ص١٨٩، وشذرات الذهب: ٦/ ص٨١.

(٣) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٧٩.

(٤) صبح الأعشى: ١٢/ ص٤٤٥.

(٥) نهاية الأرب: ٣٣/ ص١٨٩، وشذرات الذهب: ٦/ ص٨١.

(٦) تذكرة النبيه: ٣/ ص٩٢.

(٧) المنهل الصافي: ١/ ص١٧٢– ١٧٥.

(٨) أعيان العصر وأعوان النصر: ٥/ ص٣٧٣.

(٩) تذكرة النبيه: ٣/ ص٢٧٦.

ويبدو لنا أن للشهاب محمود أبناءً وأحفاداً آخرين سوى من ذكرنا أسماءهم؛ لأن عبارة ابن كثير – وهو قريب عهد بالشهاب محمود- " وكان يقال لهم: بنو الشهاب محمود"، توحي بكثرتهم. ونلاحظ أنّ من ذكرناهم من أبنائه وأحفاده، قد عملوا في ديواني الإنشاء بدمشق وحلب، وغيرهما من المدن الشامية، واتخذوا من صنعة الكتابة عملهم الوظيفي، الذي اشتغلوا به، وتعيّشوا منه.

ولعله من أجل ذلك – كما يقول- ألّف كتابه "حسن التوسل" ليعلّم أبناءه طرق الإنشاء، التي يتوصل بها الكاتب إلى أفضل ما يبتغيه في صناعة الترسل. ولكنه أشاع الانتفاع به، ولم يقصره على أهل بيته، فقال في مقدمته: " فإنه لمّا جعل الله في كتابة الإنشاء رزقاً، باشرت بسببه من وظائفها ما باشَرْت، وعاشَرْت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشَرْت، ورأيت من مذاهبهم في أساليبهم ما رأيت، ورَوَيْت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رَوَيْت... ونشأ لي من الولد وولد الولد من عاناها، وتَرَشَّح لها من بنيّ من لم أرْضَ له من التلبّس بصورتها دون التحلي بمعناها، أحببت أن أضع لهم ولمن يرغب في ذلك في هذه الأوراق من فصولها قواعد، وأقيم لهم فيها على ما لا يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد، ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها، ويعلموا من طرقها ما هو الأخصّ بأوضاعها، والأولى بها..." [(١)].

وكان الشهاب محمود يمتّ بصلة إلى محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ)، أشهر كتّاب المصريين في دولة المماليك الأولى، فقد كان جدّ الشهاب محمود لأمه، وكان ابنه علاء الدين بن عبد الظاهر (ت٧١٧هـ) خال شهاب الدين محمود[(٢)].

---

(١) حسن الترسل: ص٢.

(٢) الغيث المسجّم: ٢/ ص٢٤٣.

صفاته وأخلاقه:

لم يُجمع مترجمو الشهاب محمود على أمر إجماعهم على الإشادة بما تحلّى به من خُلُق جميل وخصال حميدة، أحبّه من أجلها كلّ من عرفه. فقد كان محموداً في سيرته، وأخلاقه وعمله، شهد له بذلك من عرفوه، ومن تلقوا العلم على يديه.

عُرف الشهاب محمود بتديّنه وتواضعه، وهدوء طبعه، وكثرة فضائله. فقد وصفه ابن شاكر الكتبي بأنه " تقدّم ببلاغته، وبديع كتابته، وإنشائه وسكونه، وتواضعه"[(١)]. وذكر ابن حبيب أنه " تفرّد في عصره في علم الأدب والكتابة، مع التواضع والوقار والسكون والتلاوة والتقشف مع الديانة ومحبة الصالحين". ونقل ابن العماد الحنبلي عن الذهبي أنّ الشهاب محمود " كان ديّناً خيّراً متعبداً، مؤثراً للانقطاع والسكون، حسن المجاورة، كثير الفضائل"[(٢)].

وهذه الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، جعلت الشهاب محمود ينال تقدير من عرفوه، فقرّبه السلاطين، وأسندوا إليه أرفع المناصب، ووثقوا به. وتوثقت صلاته بأدباء عصره، فمدحوه، وأشادوا بصفاته وأخلاقه، فقال فيه ألْطنبغا الجاولي مادحاً[(٣)]:

قال النحاة بأنّ الاسم عندهم ... غير المسمّى وهذا القول مردودُ

الاسمُ عينُ المسمّى والدليل على ... ما قلتُ أنّ شهابَ الدين محمودُ

---

(١) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ص٧٠.

(٣) النجوم الزاهرة: ٩/ ص٢٦٥. والشاعر هو علاء الدين ألطنبغا بن عبد الله الجاولي، كان أصله من المماليك، وخدم عند الأمير علم الدين سنجر الجاولي فعرف به، وتوفي سنة ٧٤٤هـ، انظر ترجمته في فوات الوفيات: ١/ ص٢٠٥-٢٠٧.

وقال فيه ابن رشيد أبو حفص إسماعيل بن مسعود الفارقي[١]:

نادِ محموداً إذا ترجو ندىً ... فهو للحائم رِيٌّ وشرابُ
لا تخَفْ من ضلّةٍ في قَصْدِه ... فهو للحائر في القصد شهابُ
وإذا اسْتَنجَدْتَهُ أو عزمه ... كان للعزم اضطرام واضطرابُ
إن هتفْنا باسمه لبّى وكم ... قد هتفْنا باسم قومٍ ما أجابوا

وأشاد بأخلاقه الشيخ عفيف الدين التلمساني، فقال[٢]:

هذا الشّهابُ الثاقبُ الدُّر الذي ... حاكى سناه عقد جوهر وَصْفِه
والنافث السحر الذي لو جُسِّدتْ ... كلماته ثغراً لَهِمتُ برشفه
سمحُ السجيّة مبدعٌ في كلّ ما ... يبديه من نظم القريض ورصفه

ولم تغيّر المناصب التي تقلدها الشهاب محمود طباعه وأخلاقه، فلم يتطرق إلى نفسه شيء من الكِبْر، بل ظلّ طوال حياته طاهر السيرة، نقيّ السمعة، مستقيماً في عمله. وكان كاتماً لأسرار الملوك، ذا عفّة وصيانة، وصَبْر على حمل ثقل الأمانة[٣] . كما كان "محباً لأهل الخير، مواظباً على التلاوة والأدعية والنوافل، وقوراً ساكناً"[٤].

---

(١) الأبيات في تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٥،وانظر ترجمة ابن مسعود الفارقي في فوات الوفيات:٢/ ص٢٠٣.

(٢) الأبيات في تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٥، والشاعر هو أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله، المعروف بالعفيف التلمساني ، له ديوان مطبوع، توفي سنة ٦٩٠هـ. (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١٣/ ص٣٢٦، وفوات الوفيات: ٢/ ص٧٧).

(٣) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٣.

(٤) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤، وانظر أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٤.



ثقافته (شيوخه وتلاميذه):

نشأ الشهاب محمود في دمشق، مركز الثقافة العربية والإسلامية زمن المماليك، وعُني أبوه بتربيته منذ صغره، فتلقى العلم، وتتلمذ على خيرة علماء عصره.

حظي الشهاب محمود بثقافة متنوعة، أهّلته لأن يتولى منصب رئيس ديوان الإنشاء. فقد أتقن الخط، واستهل حياته العملية ناسخاً للكتب، وكان يتقاضى أجرة ما ينسخه منها، وذكر مترجموه أنه نسخ الكثير(١). وفي وصف خطّه يقول الصّفدي: "وخطّه من أين للوشي رقْمُه، أو للعقد نظمه، أو للروض زهره، أو لطرف الحبيب سِحْره، أو للنجوم طرائقه، أو لخطوط إقليدس دقائقه...

يُنَمْنِم الخطّ لا يجتابُ أحرفه ... والوشيُ مهما حكاها منه يجتابُ
لو لم يكن مستقيماً بعدما سَجَدتْ ... فيه المعاني لَقُلْتُ السطر محرابُ
أمْلى تصانيفَ في أكمامها ثمرٌ ... تجنيه بالفهمِ دون الكفّ ألبابُ" (٢)

وهذا يعني أن خطّه كان منسّقاً، مما جعله يشتغل بنسخ الكتب، ويبدو لي أنّ اشتغاله بنسخ الكتب كان له دور كبير في تكوين ثقافته وتلوينها.

كانت ثقافة الشهاب محمود دينية ولغوية وأدبية، فقد سمع الحديث من الرضى بن البرهان(٣)، وابن عبد الدايم(٤)، ويحيى بن

(١) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، والنجوم الزاهرة: ٩/ ص٢٦٤، وشذرات الذهب: ٦/ ص٦٩.

(٢) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٢- ٣٧٣.

(٣) شذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، ومن ذيول العبر: ص١٤٠، وانظر ترجمته في شذرات الذهب: ٥/ ص٣١٥.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ص١٨٤، وانظر ترجمته في فوات الوفيات: ١/ ص٨١.

عبد الرحمن الحنبلي[١]. وأخذ العربية والنحو عن ابن مالك[٢]، صاحب الألفية. ولازم الأديب مجد الدين بن الظهير الإربلي، وسار على نهجه في النظم، وحذا حذوه في الكتابة[٣]. أمّا الفقه فقد اشتغل فيه على الشيخ شمس الدين بن أبي عمر المقدسي[٤]، الذي انتهت إليه الرئاسة في الفقه على مذهب أحمد بن حنبل[٥]. وبرع في الفقه حتى أنه عُيّن لقضاء الحنابلة، بعد أن أجاز له يوسف بن خليل[٦].

وفي موضوع توليّة القضاء روايتان: أولاهما: ما رواه ابن حجر العسقلاني[٧] (ت٨٥٢هـ)، ونقله عنه الشوكاني[٨] (ت١٢٥٠هـ) من أنه عيّن غير مرة لقضاء الحنابلة. والثانية: هي رواية ابن حبيب (ت٧٧٩هـ)، الذي ذكر أنه عرض عليه قضاء الحنابلة بدمشق فأبى[٩].

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤، وانظر ترجمته في شذرات الذهب: ٥/ ص٣٤٠.

(٢)شذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، ومن ذيول العبر: ص١٤١، وفوات الوفيات: ٤/ ص٨٢.

(٣) فوات الوفيات: ٥/ ص٨٢، وتاريخ ابن الفرات: ٧/ ص١٢٩، وابن الظهير من أعيان شيوخ الأدب وفحول المتأخرين توفي سنة ٦٧٧هـ، ورثاه الشهاب محمود (انظر ترجمته في فوات الوفيات: ٣/ ص٣٠١).

(٤)تذكرة النبيه: ١/ ص٨٠، وشذرات الذهب: ٦/ ص٦٩.

(٥)ذيل مرآة الزمان: ٤/ ص١٨٧. وانظر تفصيل الحديث عن شيوخه في أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٢.

(٦)من ذيول العبر: ص١٤٠، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤. ويوسف بن خليل محدّث حنبلي، ولد وتفقه بدمشق، استوطن حلب في أواخر عمره، وروى عنه خلق كثير،(الأعلام: ٨/ ص٢٢٩).

(٧) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤.

(٨) البدر الطالع: ٢/ ص٢٩٥.

(٩) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٣.

والأرجح – في رأينا – أن يكون الشهاب محمود قد ولي القضاء نستدل على ذلك بأن بعض مترجميه نعتوه بلقب القاضي[1]، ومنهم تلميذه صلاح الدين الصفدي[2]، الذي كان ملازماً له ديوان الإنشاء. وقال بهذا الشأن: "وعُيّن في وقت بالديار المصرية لقضاء الحنابلة"[3]. ويبدو أن الشهاب محمود كان يتولى القضاء – في فترات – أثناء تولّيه الكتابة في ديوان الإنشاء.

ويذكر د. عمر فروخ أنّ الشهاب محمود تولّى القضاء على المذهب المالكي، وهو لا يزال صغير السن[4]، ولا أدري المصدر الذي اعتمد عليه. وقد أشرنا إلى أنه تفقّه على أئمة شيوخ المذهب الحنبلي، حتى إن بعض مصادر ترجمته ألحقت باسمه لقب (الحنبلي)[5]، وأسماه بعضهم " كاتب السرّ الحنبلي "[6].

وتشير المصادر إلى أنه كان يعقد مجالس علم، وكان له أتباع وتلاميذ، يتلقون عليه، وينهلون من غزير أدبه. ومن تلاميذه اللامعين الذين أجازهم شعراً ونثراً، صلاح الدين الصفدي الذي قرأ كتاب "حسن التوسل" على

(١) انظر تاريخ ابن الفرات: ٨/ ص١١٥، والمنهل الصافي: ٧/ ١٠١.

(٢) انظر الغيث المسجم: ١/ ص١١٤، ص٢٧٦، ص٣٠٧.

(٣) أعيان العصر: ١/ ص٣٧٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص٧٣٥.

(٥) النجوم الزاهرة: ٩/ ص٢٦٤، وفوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، وأعيان العصر: ٥/ ص٣٧٢.

(٦) شذرات الذهب: ٦/ ص٦٩.

مصنفه الشهاب محمود[1]، وقرأ عليه أيضاً بعض كتبه وأشعاره[2]، كما قرأ عليه المقامات الحريرية، وكان عنده جماعة من الطلبة يتدارسون معه في أنواع من البلاغة[3]. وقرأ عليه الصفدي أيضاً بعض ديوان أبي الطيّب، وألفية ابن مالك التي رواها له عن مصنّفها[4].

وممن سمعوا منه أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، وابن سيّد الناس (ت٧٣٤هـ)، والحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) وأبو محمد القاسم البرزالي الإشبيلي الدمشقي (ت٧٣٩هـ)[5].

وإذا كان هؤلاء قد سمعوا منه الأحاديث، فإننا نجد في المصادر أسماء كثيرين ممن تلقوا عنه الأدب واللغة والبلاغة، نذكر منهم بالإضافة إلى الصفدي عمر بن داود بن هارون الحارثي الصفدي (ت ٧٤٩هـ)، الذي كان ماهراً مجيداً في تنفيذ المهمات السلطانية، قرأ الفقه والعربية، وأخذ الأدب عن الإمام البارع شهاب الدين أبي الثناء[6]. وكان شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ)، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق قد سمع من

---

(١) الغيث المسجم: ١/ ص٢٦٢، ص٢٨٣، ص٣١١، وانظر أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ص٤٤، ص٢٩٩.

(٣) الغيث المسجم: ١/ ص٢٨٣، ص٣١١، وانظر أيضاً: أعيان العصر للصفدي: ٥/ ص٣٧٦.

(٤) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٩.

(٥) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٣، وشذرات الذهب: ٦/ ص٧٠.

(٦) تذكرة النبيه: ٣/ ١١٧.

العلامة شهاب الدين محمود، وأخذ عنه المعاني والبيان[1]، وقرأ عليه جملة من دواوين العرب[2].

وهذا يخالف ما ذكره محقق "حسن التوسل" من أنه لم يعثر على ما يشير إلى أن الشهاب محموداً كان صاحب مدرسة، أو أنه كان له طلاب يأخذون عنه[3].

(١) المنهل الصافي: ٢/ ص٢٦٤، وتذكرة النبيه: ٣/ ص١٢٥.

(٢) فوات الوفيات: ١/ ص١٥٨.

(٣) حسن التوسل (المقدمة): ص٢٢.

في ديوان الإنشاء:

لقد كان من مظاهر تشجيع المماليك للعلم والأدب وأهلهما عنايتهم بديوان الإنشاء، الذي كان يعدّ آنذاك أعلى مجمع أدبي وثقافي، يتنافس في الوصول إليه كلّ من اشتد قلمه، ورسخت في عالم الكتابة قدمه. ولذلك كان السلطان نفسه هو الذي يتولى اختيار القائمين عليه، نظراً لخطورة هذا الأمر، وعلاقة كتّاب الديوان بالسلطان وكبار رجال الدولة.

وكان يخضع ناظر الديوان لاختيار السلطان نفسه، بما يجب أن يجتمع له من صفات العلم والموهبة الأدبية، وحسن السيرة، نظراً لأهمية منصبه، واطّلاعه على أسرار الدولة والسلطان. لذا كان لقب (كاتب السر) أحد ألقاب ناظر ديوان الإنشاء. وقد عبر صلاح الدين الأيوبي عن هذه الحقيقة حين قال على ملأ من الناس: "لا تظنّوا أنّي فتحتُ البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل"[1].

وبلغ كاتب السرّ منزلة عظيمة في دولة المماليك، فقد استهلّ القلقشندي موسوعته: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" في بيان رتبه صاحب هذا الديوان فقال: " أمّا رفعة محلّه، وشرف قدره فأرفع محل وأشرف قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصّ منه، ولا ألزم لمجالسته. ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن، مقدماً لديهم على عداه، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لم يطّلع عليه أخص الأخصّاء من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبة هذا محلها"[2].

وتحدّث القلقشندي حديثاً مطولاً عن صفات صاحب ديوان الإنشاء، وآدابه، ومعارفه ومهماته، وما يحتاج إليه من علوم[3]، وهو شيء يستدعي من الطالب جهداً

(١) النجوم الزاهرة: ٦/ ص١٥٧.

(٢) صبح الأعشى: ١/ ص١٣٥.

(٣) صبح الأعشى: ١/ ص١٣٩ – ٤٦٦.

كبيراً، وسعياً حثيثاً، ليؤهل نفسه لذلك المنصب. لذلك تنافس على هذا المنصب كبار الكتّاب، وعمل للوصول إلى هذه المرحلة كلّ واحد من ذوي الطموح، فكان ذلك مدعاة للتوسع في التزود والتحصيل.

أمّا المقريزي فقد تحدّث عن منصب رئيس ديوان الإنشاء زمن المماليك فقال: "وكان لا يتولاه إلا أجلّ كتّاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجلّ، ويقال له كاتب الدّست الشريف، ويُسلّم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده. وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب. والخليفة يستشيره في أكثر أموره، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه. وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي. وهو أوّل أرباب الإقطاعات، وأرباب الكسوة والرسوم..."[1]

ويُعدّ الذين تسلّموا هذا المنصب أعلاماً في الكتابة والأدب أمثال القاضي الفاضل، وضياء الدين بن الأثير، وشهاب الدين محمود، وصلاح الدين الصفدي، والمقريزي، والقلقشندي، وغيرهم ممن كانوا في زمنهم القمم الأدبية السّامقة، التي يسعى المتأدبون لاحتذائها، ويطمحون للوصول إليها، فيقرأون عليهم كتب الأدب، ويروون كتبهم، ويتخرجون على أيديهم.

كان أول عمل تولاه الشهاب محمود بعد أن كملت أدواته، واشتهر أمره في النظم والإنشاء، هو كتابة الدّرج[2] في ديوان الإنشاء. ولا نجد في المصادر التي بين أيدينا تحديداً للسنة التي عُيّن فيها بديوان الإنشاء. ولكن معاصره قطب الدين اليونيني (ت٧٢٦هـ) يذكر أنه كان كاتب الدّرج سنة ٦٧٠هـ[3]، وهذا

---

(١) الخطط المقريزية: ٢/ ص٢٢٤.

(٢) كتّاب الدرج هم الذين يجيدون الخط أكثر من الإنشاء، والدرج هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، والدرج بسكون الراء وفتحها.

(٣) ذيل مرآة الزمان: ٢/ ص٤٧٦.

يعني أنه عمل بديوان الإنشاء قبل بلوغه الثلاثين من عمره. وبقي من كتّاب الدّرج في ديوان الإنشاء بدمشق في عهد السلطان الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ)، وفي عهد السلطان قلاوون (ت٦٨٩هـ).

وفي سنة ٦٩٢هـ نُقل الشهاب محمود ليعمل بديوان الإنشاء في القاهرة، حيث احتيج إليه بعد وفاة رئيس ديوان الإنشاء هناك محيي الدين بن عبد الظاهر[١]. وفي الديار المصرية اشتهر اسمه، وبَعُد صيته، وصار المشار إليه في هذا الشأن في الديار المصرية والشامية[٢].

وتقدم الشهاب محمود ببلاغته وبديع كتابته وإنشائه، حتى تولّى رئاسة ديوان الإنشاء بمصر سنة ٧٠٨هـ عند السلطان المظفر بيبرس (ت٧٠٩هـ)، وبقي يشغل رئيس ديوان الإنشاء بمصر إلى أن توفي القاضي شرف الدين بن عبد الوهاب بن فضل الله العمري سنة ٧١٧هـ، الذي كان يرأس ديوان الإنشاء بدمشق، فأُرسل الشهاب محمود إلى دمشق، ليتولى كتابة السر، والنظر في ديوان الإنشاء، قال ابن كثير: "وفي بكرة نهار الثلاثاء الثامن والعشرين من شوال وصل الشيخ الإمام العلامة شيخ الكتّاب شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي على البريد من مصر إلى دمشق متوليّاً كتابة السر بها عوضاً عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري"[٣]. وبقي في هذا المنصب نحو ثماني سنوات إلى أن توفي سنة ٧٢٥هـ.

---

(١) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ص٢٢٧.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ص٨١.

وهكذا فقد عمل الشهاب محمود في ديواني الإنشاء بدمشق والقاهرة كاتباً ورئيساً للديوان نحواً من خمسين سنة، حتى أصبح " شيخ صناعة الإنشاء في عصره "[1]، ولم يكن بعد الفاضل مثله في صنعة الإنشاء[2].

وكان لاشتغال الشهاب محمود رئيساً لديوان الإنشاء لفترة طويلة دور كبير في توجيه الأدب في عصره من حيث موضوعاته وأساليبه، كما أن منصبه هذا جعله قريباً بشخصه من تيارات الحياة العامة في دولة المماليك البحرية. وبخاصة أنه كان صاحب ديوان الإنشاء في مركز الدولة، في القاهرة ودمشق اللتين كانتا مركزي العلم والثقافة آنذاك، وكان لهما دور كبير في احتضان مادة الثقافة والفكر في العصر المملوكي.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١١٨، وشذرات الذهب: ٦/ ص٢٢٦.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨.

صلته برجالات عصره:

إن المناصب التي تولاها الشهاب محمود في ديواني الإنشاء بدمشق والقاهرة اقتضت منه أن يكون على صلة وثيقة بسلاطين المماليك، الذين أفلحوا في تطهير أرض الشام من ممالك الفرنجة، ووقفوا سداً منيعاً أمام غزوات التتار، وألحقوا بهم هزائم متتالية. لقد اتّصلت المودة بينه وبين الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، والأشرف خليل ابن قلاوون، وغيرهم ممن جالسهم، ومدحهم، ووصف المعارك التي خاضوها في مواجهة الغزوين: الصليبي والمغولي.

ولقي الشهاب محمود كذلك ترحيباً وتقديراً من نوّاب السلطنة بالشام، فكانوا يحترمونه ويعظمونه، ومنهم: صاحب حماة الملك المؤيد الأيوبي[1](ت٧٣٢هـ)، الذي كان الشعراء يؤمونه وينشدونه المدائح الغر، وينشدهم ما ينظمه من الشعر. وكان يجتمع في بلاطه عدد من الشعراء منهم: ابن نباتة المصري، وصفيّ الدين الحلي، والشهاب محمود، وغيرهم.

ومما يدل على المكانة الخاصة التي كانت للشهاب محمود عند نوّاب السلطنة بالشام ما ذكره صلاح الدين الصفدي من أن الشهاب محمود كان يكتب يوماً بين يدي نائب السلطنة بدمشق المنصور حسام الدين لاجين (ت٦٩٨هـ) فوقع شيء من الحبر على ثيابه، فأعلمه السلطان بذلك، فنظم في الحال:

ثياب مملوكك يا سيدي ... قد بيّضت حالي بتسويدها

ما وقع الحبر عليها بلى ... وقّع لي منك بتجديدها

---

(١) هو عماد الدين أبو الفدا، عيّنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على حماة سنة ٧١٠هـ، ولم تشغله أمور ملكه عن التصنيف، ومن مصنفاته المطبوعة: المختصر في تاريخ البشر.

فأمر له بتفصيلتين، ومبلغ خمسمائة درهم[1].

وكان نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين تنكز (ت٧٤٤هـ) يحترم الشهاب محمود ويجلّه، وشهد جنازته وصلّى عليه[2]. وأعجب بالشهاب محمود شمس الدين بن السلعوس (ت ٦٩٧هـ)[3]، وزير السلطان قلاوون، الذي نقله من ديوان الإنشاء بدمشق إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة، سنة ٦٩٢هـ، عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر[4].

ومن أعيان العصر الذين اتصل بهم الشهاب محمود شمس الدين بن خلكان، صاحب "وفيات الأعيان"، وقد عاده الشهاب محمود في مرضه الذي مات فيه سنة ٦٨١هـ بالمدرسة النجيبية[5]، وأنشده ابن خلكان شعراً لبعض أهل الأدب في الرثاء[6].

وكان شهاب الدين محمود -كما أسلفنا- ناظماً مكثراً، وناثراً مجيداً، كما أنه كان محمود السيرة، حسن الخلق؛ لذلك اتصلت المودّة بينه وبين عدد من أدباء مصر والشام في عصره، كالسراج الوراق (ت٦٩٥هـ)، وعفيف الدين التلمساني(ت٦٩٠هـ)، وناصر الدين ابن النقيب المصري (٦٨٧هـ)، وشهاب الدين العزازي (ت٧١٠هـ)، وفتح الدين

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٤/ ص٣٨٧، والنجوم الزاهرة: ٨/ ص١٠٨، وتذكرة النبيه: ١/ ص٨٩.

(٢) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، وانظر ترجمة الأمير تنكز في فوات الوفيات: ١/ ص٢٥١-٢٥٨.

(٣) هو أحمد بن عثمان بن أبي الرجاء شهاب الدين بن السّلعوس التنوخي الدمشقي،انظر ترجمته في المنهل الصافي:١/ ص٣٨٧.

(٤) أعيان العصر: ٥/ ٣٧٤.

(٥) كانت بدمشق للشافعية، وقفها النائب الأمير جمال الدين آقوش النجيبي حوالي سنة ٦٢٢هـ، وإليه تنسب، ودرّس بها ابن خلكان وابن كثير (الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ص٣٥٨).

(٦) ثمرات الأوراق: ص٤٨، وتذكرة التنبيه: ١/ ص٧٥.

ابن عبد الظاهر (ت ٦٩١هـ)، وعلاء الدين بن غانم (ت٧٣٧هـ)، وصفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ)، وغير هؤلاء كثيرون ممن جرت بينه وبينهم مراسلات ومكاتبات شعرية، جاء بعضها في بضعة أبيات، أو في قصائد بتمامها، أوردت المصادر نصوصها، وأفاضت في الحديث عنها(١).

وتوثقت صلة الشهاب محمود بأمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري (ت٧٦٨هـ)، فقد التقيا في بلاط صاحب حماة، الملك المؤيد الأيوبي، وترجم ابن نباتة للشهاب محمود ترجمة ضافية في كتابه " سجع المطوق"(٢)، وأشاد بمنزلته الأدبية في الشعر والنثر.

ولابن نباتة المصري أربع قصائد في مديح الشهاب محمود(٣)، وهي تدل على أنّ العلاقة بينهما لم يكن أساسها العطاء، بل كانت قرابة الآداب هي التي دفعت ابن نباتة لمديح الشهاب، يقول من قصيدة:

مدحتُك لا أبغي ثراءً بذلّته	إليّ ولكن رفعة بشراكا
فأقسم ما ضمّت كحبك أضلعي	ولا استنشقت روحي كَنَشْر هواكا
أكاد أطيق السيل أدفع صدره	ولا أدّعي أني أطيق جفاكا

وبالإضافة إلى أعلام الأدب الذين ذكرنا أسماءهم فقد أقام الشهاب محمود في دمشق والقاهرة اتصالات ما بينه وبين ذوي الأمر من قضاة وفقهاء ونواب، وجرت بينه

---

(١) انظر بعض تلك المراسلات والمجاوبات الشعرية في فوات الوفيات: ٤/ ص٨٥- ٩٦، وانظر أيضاً: أعيان العصر: ٥/ ص٣٨١- ٣٨٧.

(٢) انظر كتاب: ابن نباتة المصري(أمير شعراء المشرق): ص١٦٦، نقلاً عن سجع المطوق (مخطوط) ورقة: ٣٨، ٣٩.

(٣) انظر القصائد في ديوان ابن نباتة: ص١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٦٤.

وبينهم مطارحات ومراسلات شعرية، كتلك التي جرت بينه وبين أستاذه مجد الدين بن الظهير[1]، وشمس الدين الحنبلي (ت٦٧٥هـ)[2]، وقاضي القضاة الأديب البليغ ابن صَصْرى (ت٧٢٣هـ)[3].

ولم تقتصر مراسلات الشهاب محمود الشعرية على أدباء وفقهاء البلد الذي يحل فيه، وإنما كانت تتعداها إلى بلدان أخرى. فبينما كان يعمل بديوان الإنشاء في الديار المصرية كانت بينه وبين الفقيه تقي الدين بن تمام الحنبلي (ت٧١٨هـ) بالشام مراسلات شعرية[4]. وجرت مثل تلك المراسلات أيضاً بينه وبين الفقيه أمين الدين بن عساكر (ت٦٨٧هـ) نزيل الحرم بمكة[5].

ولا بأس في إيراد نموذج من تلك المراسلات الشعرية، وهو ما جرى بينه وبين علاء الدين بن غانم، الذي كانت تربطه به صداقة وطيدة.

قال ابن غانم: عتبني يوماً القاضي شهاب الدين محمود، وقال: بلغني أن رجال ديوان الإنشاء يذمّونني وأنت حاضر ما تردّ غيبتي، فكتبتُ إليه:

وَمَنْ قال إنّ القومَ ذمّوك كاذبٌ ... وما منك إلاّ الفضل يوجد والجودُ

وما أحدٌ إلاّ لفضلك حامدٌ ... وهل عيبَ بين الناس أو ذُمَّ محمودُ

---

(١) ذيل مرآة الزمان: ٣/ ص٣٩٤.

(٢) فوات الوفيات: ٣/ ص٤٢٨.

(٣) المنهل الصافي: ٢/ ص٩٧- ٩٩. وابن صَصْرى هو أحمد بن محمد بن سالم، ولد سنة ٦٥٥هـ، وعمل في ديوان الإنشاء بدمشق، ولي القضاء سنة ٦٧٢هـ إلى أن مات ٧٢٣هـ. انظر ترجمته في (فوات الوفيات: ١/ ص١٢٦).

(٤) فوات الوفيات: ٢/ ص١٦١.

(٥) المصدر نفسه: ٢/ ص٣٢٨.

فكتب إليّ أبياتاً منها:

علمتُ بأنّي لم أذمّ بمجلس	وفيه كريم القوم مثلك موجود
ولستُ أزكيّ النفس إذ ليس نافعي	إذا ذمّ مني الفعل والاسم محمودُ
وما يكره الإنسان من أكل لحمه	وقد آن أن يبلى ويأكله الدودُ[1]

وفي الحقيقة إنّ مراسلات الشهاب محمود ومعارضاته الشعرية مع أعيان عصره من الأدباء والفقهاء كثيرة، تحتاج إلى دراسة خاصة تتناولها في الأساليب والمضامين، وبوسعنا أن نسوق العديد من الشواهد، فهي كثيرة، ولكننا – في هذا المقام- ما سعينا إلى إحصائها أو حصرها، وإنما كان هدفنا أن نشير إلى المكانة الأدبية الرفيعة التي بلغها الشهاب محمود، مما جعل الشعراء والفقهاء – في عصره- يطارحونه الشعر في موضوعات تدخل في مجملها في إطار الشعر الإخواني، الذي يكشف لنا عن جوانب الحياة العامة، التي أحاطت بالشهاب محمود وأدبه، كما أن كثيراً من تلك المساجلات تكشف لنا عن بعض جوانب شخصيته وأخلاقه، وصلاته بأعلام الأدب والشعر في عصره.

(١) الغيث المسجّم: ٢/ ص١٩٨. وانظر ترجمة علاء الدين بن غانم في فوات الوفيات: ٣/ ص٧٨.

مؤلفاته وإنتاجه الأدبي:

كان الشهاب محمود ممن أتقن الفنّين: المنظوم والمنثور[١]، وقد ترك فيهما مؤلفات وصفها ابن كثير بأنها مصنفات فائقة حسنة[٢]، ونعتها ابن نباتة المصري بأنها "تصانيف تملأ الأذهان فهماً، وتسع فنون الآداب علماً"[٣]، ومن مؤلفاته:

١. حُسْن التوسُّل إلى صناعة الترسُّل:

وهو أشهر مصنفاته، ذكره ابن شاكر الكتبي، وابن حجر العسقلاني[٤]. ونوّه به ابن نباتة المصري في كتابه " سجع المطوق"[٥] وهذا الكتاب مطبوع، ألّفه الشهاب محمود لتعليم الكتّاب طرق الإنشاء، قدّمه بمقدمة موجزة تدور حول فن الكتابة وآلاتها الضرورية للكاتب، ثم تحدَّث عن فنون البديع وأقسامه، ويظهر في هذا التقسيم اتجاهه إلى منهج البديع وميله إليه باعتباره فن القول في عصره. وأورد بعد ذلك نماذج نثرية من إنشائه، وضعها بين يدي ناشئة الكتّاب، للاقتداء بها وتقليدها.

وَيُقْصَد بصناعة الترسل –كما يقول القلقشندي- " صناعة الإنشاء؛ لأنه قد يعبر عنها بصناعة الترسل تسمية للشيء بأعم أجزائه، إذ الترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغني عنها ملك ولا سوقة، وعلى ذلك بنى الشيخ محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل"[٦].

---

(١) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١١٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي): ص٤٩٠، نقلاً عن مخطوطة سجع المطوق لابن نباتة.

(٤) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤.

(٥) تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي: ص٤٩٠، نقلاً عن سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٦٩- ٧٠.

(٦) صبح الأعشى: ١/ ص٨٤.

وقد لقي هذا الكتاب اهتماماً من معاصري الشهاب محمود، فتلميذه صلاح الدين الصفدي أشاد به، وذكر في غير موضع من كتابه " الغيث المسجّم "[1] أنه قرأه على مصنفه أبي الثناء محمود. وذكر في كتابه " أعيان العصر"، أنه قرأه على مصنفه سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وكتب في آخره:

العالمُ العلاّمة الحِبْرُ الذي	بَهَرتْ عجائِبُه بني الآداب
ودَنَتْ لديه المشكلات وطالما	جمحت أوابِدُها على الطلاّب
الألمعيّ أخو الفواضل والندى	الكامل الأدوات و الأسباب[3]

وكان النويري من قبل قد أعجب بهذا الكتاب، وأفرغ نصّه كاملاً في موسوعته " نهاية الأرب"[4]. ونجد من المحدثين د. محمود رزق سليم يعرض مضمونه عرضاً مفصلاً، ويعدّه من كتب النقد الأدبي في عصر المماليك[5].

٢. **مقامة العشاق:**

وهذه المقامة ذَكرتْها المصادر[6]، ولكنها لم تصل إلينا.

---

(١) انظر الغيث المسجّم: ١/ ص٢٦٢، ص٢٨٣، ص٣١١، ٢/ ص٤٦٢.

(٣) أعيان العصر: ٥/ ٣٧٨.

(٤) نهاية الأرب: ٧/ ص٢٢-١٨٥.

(٥) عصر سلاطين المماليك: ٦/ ص ١٢٥- ١٥١.

(٦) انظر فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، وكشف الظنون: ١/ ص٦٦٦، وهدية العارفين: ٢/ ص٤٠٧، وفيه (مقامات العشاق).

٣. منازل الأحباب ومنازه الألباب[١]:

وهو في الهوى العذري، وما زال مخطوطاً، منه نسخ في برلين وليدن والمتحف البريطاني[٢]، ودار الكتب المصرية[٣].

٤. الذيل على ذيل القطب اليونيني في التاريخ[٤]: تفرّد بذكره ابن حجر العسقلاني.

٥. الذيل على الكامل لابن الأثير[٥]:

ومنه نسخة خطية في برلين[٦]، وقد يكون هذا الكتاب، هو الذي اعتمد عليه ابن تغري بردي، ونقل عنه كثيراً في كتابه " المنهل الصافي"، وكان يصدّر ما ينقله بعبارة : "قال العلامة الشهاب محمود في تاريخه"[٧].

٦. أسنى المنائح في أسنى المدائح[٨]:

وهو ديوان ضخم جميعه في المديح النبوي. وذكر ابن حجر العسقلاني أنّ عدد أبياته ألفان وثلاثمائة وخمسة وستون بيتاً، وأنه لم يخلف في معناه مثله[٩].

---

(١) ورد ذكره في فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، وكشف الظنون: ٢/ ١٨٢٧، والأعلام: ٧/ ص١٧٢، وهدية العارفين: ٢/ ص٤٠٧ باسم (منازل الأحباب ومنارة الألباب)، وفي كتاب أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: ٤/ ص٥٤٤ باسم(منازل الأحباب ومباراة الألباب).

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ٣/ ص١٣٩ – ١٤٠.

(٣) تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي): ص٤٩١ هامش رقم ٨.

(٤) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٦.

(٥) الأعلام: ٧/ ص١٧٢.

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ٣/ ص١٤٠.

(٧) انظر على سبيل المثال: المنهل الصافي: ٧/ ص٢٦٧، ص٢٩٥، ص٣٠٣، ص٣٧٦.

(٨) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢. ولعل كلمة المنائح في هذه التسمية ترجع إلى غلبة الناحية الندبية، وطغيان عاطفة الحزن، ورجحان طابع الرثاء في هذا الديوان.

(٩) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٥.

وقد ورد اسم هذا الديوان باختلاف عند أصحاب المصادر[١]. وطبع بمجلة الشورى دون تاريخ[٢].

وقد احتفظ لنا يوسف النبهاني البيروتي (ت١٣٥٠هـ) في مجموعته الخاصة بالمدائح النبوية بما يقارب ثلاثة آلاف بيت من الشعر في هذا الموضوع، فإذا ما أخذنا بالاعتبار رواية العسقلاني بالنسبة لعدد أبيات هذا الديوان، فإن الباحث يمكنه أن يستخلص أنّ ما أورده النبهاني في مجموعته من قصائد للشهاب محمود في المديح النبوي، ربما تكون هي ذاتها ديوانه الكامل، وبخاصة أن رواية النبهاني في القصيدة الأولى قد تدل على ذلك، حيث قال: " وقال الشهاب محمود الحلبي وصحّحتها على نسخة من ديوانه مقابلة على نسختين من مكاتب القسطنطينية المحمية، إحداهما في مكتبة جامع أيا صوفيا، والأخرى في مكتبة عاشر أفندي رئيس الكتاب[٣].

٧. رسائله:

عاش الشهاب محمود نيفاً وثمانين عاماً، أمضى خمسين عاماً منها في ديوان الإنشاء، وهذا يعني أن إنتاجه في خمسين عاماً يشكل عدداً غير قليل من المجلدات، وبخاصة أن موهبته ومقدرته في الإنشاء جعلته يكتب الكتب والرسائل بديهة ودون مسودات[٤].

---

(١) في الغيث المسجم: ١/ ص١١٤ (أسنى المنائح في أهنى المدائح)، وفي الدرر الكامنة: ٤/ ص١٢٥ (أهنى المنائح في أسنى المدائح)، وفي تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/ ص١٤٠ (أهنى المفاتح بأسنى المدائح). ووهم د. محمود رزق سليم فظن ديوان (أسنى المنائح) قصيدة واحدة في المديح (عصر سلاطين المماليك: ٦/ ١٢٥)، وَوَهم د. شوقي ضيف فذكر أن هذا الديوان مفقود (عصر الدول والإمارات: الشام: ص١٦١).

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة: ص١١٥٢.

(٣) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية: ١/ ص١٣٢.

(٤) نهاية الأرب: ٣٣/ ص١٤٥.

وقد ذكر تلميذه الصفدي أنّ رسائله تدخل في ثلاثين مجلدة[1]. ولكنّ الذي وصل إلينا من رسائله قليل جداً، وهو متفرق في بطون المصادر.

وتنوعت رسائله، فهناك الرسائل الديوانية، التي كانت تدور حول كتب الحروب والفتوح والتهاني، وكتب التقاليد والتواقيع والمناشير. وله رسائل في الطرديات من ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح، وأنواع الرياضات من الصيد والرمي بالبندق. كما أن له رسائل في الإخوانيات. ومن محاسن نثره الكتاب الذي وصف فيه الخيل، وقد قرأه عليه تلميذه صلاح الدين الصفدي[2]، وكذلك رسالته في الصيد بالبندق، التي أوردها القلقشندي في " صبح الأعشى"[3].

٨. شِعره:

كان الشهاب محمود – كما ذكرنا – شاعراً مكثراً، وكان له شعر جيد[4]، وعلى الرغم من ذلك فلا يذكر مترجموه أنّ له ديوان شعر، أو أنّ شعره في غير المدائح النبوية قد جمع في ديوان. ونحن نجد له أشعاراً كثيرة مبثوثة في " فوات الوفيات"، " والنجوم الزاهرة"، و" نهاية الأرب"، وغيرها من المصادر وكتب التراجم.

وتناول الشهاب محمود في أشعاره موضوعات مختلفة من مديح ورثاء وَوَصْف ومطارحات أدبية بالإضافة إلى قصائد وموضوعات ذات طابع عاطفي ووجداني. وهي في مجموعها تُشكِّلُ ديواناً ضخماً، قد يُهيأ له من يقوم بجمعه وتحقيقه في قادم الأيام.

---

(١) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣، وانظر أيضاً: الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤.

(٢) الغيث المسجم: ١/ ص٤١. وانظر الكتاب في أعيان العصر: ٥/ ص٣٩٢ وما بعدها.

(٣) صبح الأعشى: ١٤/ ص٣٢٧- ٣٤٠.

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج١ق١ ص٤٥١.

ويبدو أن شهرة الشهاب محمود في النثر والكتابة قد طغت على شهرته في نظم الشعر، ويرجع ذلك إلى أنه عمل طويلاً في ديوان الإنشاء، الذي يقوم العمل فيه على كتابة النثر، كما أن لشهرة كتابه " حسن التوسل"، وهو في تعليم صنعة الإنشاء، أثراً في ذلك. ولهذا فإننا نجد أكثر الباحثين والدارسين يعدّونه من أعيان كتّاب النثر في العصر المملوكي[1]، ولا يذكرونه في الشعراء، على الرغم من أنّهم يستشهدون بأبيات كثيرة من شعره في حديثهم عن موضوعات الشعر في تلك الفترة.

(١) من هؤلاء الباحثين والدارسين: د. محمد زغلول سلام في كتابه: الأدب في العصر المملوكي، ود. محمود رزق سليم في كتابه: عصر سلاطين المماليك، ود. عمر موسى باشا في كتابه: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، ومحمد سيّد كيلاني في كتابه: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي.



منزلته الأدبية:

تبوّأ الشهاب محمود منزلة مرموقة بين أدباء عصره، وتفوّق على الكثيرين ممن عاصرهم، لذلك عدّوه من كبار كتاب العصر المملوكي وشعرائه.

شهد العلماء وكتّاب التراجم للشهاب محمود بالتفوق في نظم الشعر، كما اعترفوا بغزارة شعره، وطول قصائده[٢]. وأثنى مترجموه على بلاغته، فقال الذهبي (ت٧٤٨هـ): "علاّمة الأدب، وعَلَم البلاغيين"[١]، وقال ابن تغري بردي: " كان من أئمة الكتّاب، ورأس البلغاء في عصره"[٢]. " وقد أتقن الفنّين نظماً ونثراً، وبرع في الحالين بديهة وفكراً"[٣].

جمع الشهاب محمود بين صناعتي النظم والنثر، فهو الأديب الناثر الناظم، قال ابن كثير: " كان بارعاً في عِلم الإنشاء نظماً ونثراً "[٤]، وقال ابن شاكر الكتبي: " وكان ممن أتقن الفنّين: المنظوم والمنثور"[٥]، وقال ابن العماد الحنبلي: " وفتح له في النظم والنثر، واشتهر وبعُد صيته"[٦].

لم يكن الشهاب محمود من كتّاب العصر المملوكي فحسب، كما هو متداول عند كثير من الدارسين، ولكنه كان أيضاً من الشعراء المرموقين في عصره، قال ابن حجر العسقلاني: " فاضل كتب في الإنشاء، وفي جودة الشعر فاق أهل عصره، وأربى على كثير

---

(٢) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣ ، وانظر النجوم الزاهرة : ٧/ ص ١٦ ، ص٣٢٣ .

(١) من ذيول العبر: ص١٤٠ .

(٢) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢.

(٣) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣.

(٤) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨.

(٥) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٤.

(٦) شذرات الذهب: ٦/ ص٨٠.

ممن تقدّمه"[1]. وقال ابن أيبك الدّواداري: " فاضِل الزمان، المتفرد بعِلْم البديع والبيان، الذي تشرقّت بأنامله اليراعة، وجمع بين محاسن التجنيس إلى تخلّص البراعة"[2].

بدأ الشهاب محمود نظم الشعر في باكورة شبابه، ومن أوائل شعره الجيد قصيدته في مدح الظاهر بيبرس ووصف انتصاره على التتار، وخوض الفرات خلفهم[3].

وقد أعجب معاصروه ببعض قصائده ومقطوعاته، كقصيدته اللاّمية في الغزل، التي اختارها ابن شاكر الكتبي[4]، وذكر أبياتاً منها ابن العماد الحنبلي[5]، وغيرهما، يقول فيها[6]:

يـا مَـنْ أضـاف إلى الجـمال جميلا	لا كنـتُ إن طاوعـتُ فيـك عـذولا
عوّضـتني مـن نـار هجـرك جنّـة	فكنـتُ ظـلاًّ مـن رضـاك ظليلا
وحَلَلـتَ مـن أحـشاي ربعـاً دارسـاً	فغـدا بقربـك عـامراً مـأهولا
ومننـتَ حـين منحتنـي سـقماً بـه	أشـبهتُ خـصرك رقـة ونحـولا
وكففـتَ لحظـك بالفتـور تلطّفـاً	كيـلا أبيـتَ بحـدّه مقتـولا
وسـلكتَ بي في الحـب أحسن مسلك	لم يبـق لي نحـو الـسلوّ سبيـلا
ولـربّ ليـلٍ مثـل وجهـك بَـدره	ودجـاه مثـل مديـد شـعرك طـولا
إنْ لم أجُـد للوجـد فيـك بمهجتـي	لا نـال قلبـي مـن وصـالك سـولا

---

(١) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٥.

(٢) كنز الدرر وجامع الغرر: ٨/ ص٣٨٩.

(٣) انظر القصيدة في دراستنا هذه ص

(٤) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٨.

(٥) شذرات الذهب: ٦/ ص٧٠.

(٦) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٨.

أمّا قصيدته التي مطلعها[1]:

هـل البـدرُ إلاّ مـا حـواه لثامُهـا ... أو الـصبحُ إلاّ مـا جـلاه ابتـسامُها

فقد عدّوها من جيد شعره، وغرر قصائده[2]، ومنها:

أقـامت بقلبـي إذا أقـام بحبّهـا ... فـدارتها قلبـي وداري خيامُهـا

إذا مـا نَـضَتْ عنهـا اللثامَ وأسـفرت ... تقـشّع عـن شـمس النهـار غمامُهـا

نهايــة حظــي أن أقبّــل تربهــا ... وأيــسرُ حــظّ للثــام التثامهــا

تُريـك محيّـا الـشمس في ليـل شـعرها ... عـلى قيـد رمـحٍ قدّهـا وقوامهـا

وقصائد الشهاب محمود الجهادية، في تمجيد الأبطال ووصف المعارك، أعجب بها القدماء أيّما إعجاب، ونعتوها بنعوت كثيرة: فهي " طنّانة"[3] عند ابن تغري بردي، و"حسنة أنيقة"[4] عند ابن العماد الحنبلي، و" هائلة"[5] عند ابن كثير، ومشهورة فائقة عند صلاح الدين الصفدي[6]. وهذه القصائد هي موضوع دراستنا في الفصول القادمة.

ونجد صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) يُعجب بصنعة أستاذه وشيخه الشهاب محمود في الشعر، ولذا فقد نقل في مواضع متعددة من كتابه " الغيث المسجّم"[7] أبياتاً كثيرة من شعره، ونصّ على مواطن الإجادة فيها. وقال في كتابه " أعيان العصر":

(١) انظر أبيات القصيدة في فوات الوفيات: ٤/ ص٨٥- ٨٧.

(٢) البدر الطالع: ٢/ ص٢٩٥، وانظر القصيدة كاملة في: أعيان العصر: ٥/ ص٣٨٨- ٣٩٢.

(٣) النجوم الزاهرة: ٧/ ص١٥٩.

(٤) شذرات الذهب: ٦/ ص٧٠.

(٥) البداية والنهاية: ١٣/ ص٣٢٧.

(٦) الوافي بالوفيات: ١٣/ ص٢٥٤، وأعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣.

(٧) انظر الغيث المسجم: فهرس الأعلام (الشهاب محمود الحلبي).

"والذي أراه أنا أنّ نظمه أعذب في الأسماع، وأقرب إلى انعقاد الإجماع، لأنه انسجم تركيباً، وازدحم تهذيباً، فسحر الألباب، ودخل بالعجب من كل باب" [1].

وتبوأ الشهاب محمود مكانة عالية بين شعراء المديح النبوي على مرّ العصور، فقد نظم قصائد طنانة في مدح النبي (ﷺ)، وسمها بـ " أسنى المنائح في أهنى المدائح"، كتبها الصلاح الصفدي، وقرأها على أستاذه الشهاب محمود، رغبة في البركة – كما يقول- وطلباً للدخول في زمرة من دوّن مدحه[2].

أمّا الكتابة الديوانية فالشهاب محمود فيها " شيخ صناعة الإنشاء في عصره"[3]، وقرنوه في هذا المجال بالقاضي الفاضل، فقال صلاح الدين الصفدي من قصيدة يرثيه:

أمّا تَرَسُّلُه السهلُ البديعُ فقد ... أقام في شاهقٍ بالنجم معقودِ

أنسى الأنامَ به عبدَ الرحيم كما ... راح العمادُ بقلبٍ غيرَ معمودِ[4]

ولكنهم فضلوا الشهاب محمود في كثرة النظم، والقصائد المطولة الحسنة البليغة[5]. وذكروا أنه كان يقيم بدار القاضي الفاضل نفسه بدمشق[6]، وبلغ في الإنشاء مبلغاً جعله يكتب التقاليد على البديهة، ومن غير مسودة[7].

---

(١) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣.

(٢) الغيث المسجم: ١/ ص٢٨٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، وشذرات الذهب: ٦/ ص٩٦.

(٤) البيتان من قصيدة في أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٦. وعبد الرحيم هو القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ)، والعماد هو الكاتب (ت٥٩٧هـ).

(٥) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، وشذرات الذهب: ٦/ ص٢٢٧.

(٦) الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ص٢٣٦.

(٧) شذرات الذهب: ٦/ ٩٦.

وقارنوه في تفوقه بالأدب شعره ونثره، بتفوق بعض معاصريه في تخصصاتهم، كالدمياطي الذي تفوق في حفظ الحديث وروايته، فينقل ابن حجر العسقلاني بإسناد إلى ابن سيد الناس قوله: "ما رأيت أجلّ من الدمياطي والشهاب محمود، والشهاب في بابه أجَلّ"[(١)].

هذه بعض آراء القدماء في مكانة الشهاب محمود ومنزلته الأدبية، أمّا المعاصرون فقد نعتوه بمثل ذلك، فقال خير الدين الزركلي: " أديب كبير وشاعر مكثر"[(٢)]. وقال عمر فروخ: "كان ناثراً بليغاً، وشاعراً مجيداً، مكثراً من النظم والنثر"[(٣)]. وكان جورجي زيدان متسرعاً في حكمه حين عدّ الشهاب محمود من الأدباء الذين لم يشتغلوا بالنظم، وليسوا شعراء، وإنما ألّفوا في الأدبيات ونحوها[(٤)]. ويبدو لي أنه لم يطّلع على قدر كافٍ من شعر الشهاب محمود، أو أن قصائده في مواجهة الغزوين: الصليبي والمغولي، وقصائده في المديح النبوي لم تنل إعجابه، مما جعله يُقْصيه عن دائرة الشعراء.

ونختم حديثنا عن منزلة الشهاب محمود الأدبية بشهادة بعض معاصريه ممن أشادوا به وببلاغته إشادات رائعة، فها هو النويري(ت٧٣٣هـ)، صاحب موسوعة" نهاية الأرب" يقول فيه: " كان رحمه الله رجلاً فاضلاً، كاتباً، أديباً، شاعراً، انتهت إليه كتابة الإنشاء، ولو قيل فيه كاتب الشرق والغرب لَاسْتَحَقَّ ذلك، غير مدفوع عنه، ولا

---

(١) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٦. والدمياطي هو عبد المؤمن بن خلف حافظ للحديث، من أكابر الشافعية، ولد بدمياط، وتنقّل في البلاد. ومن كتبه المطبوعة " المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح" توفي سنة ٧٠٥هـ.

(٢) الأعلام: ٧/ ص١٧٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص٧٣٥.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/ ص١٣٩.

منازع فيه"[١]، ونعته ابن كثير بأنه " الشيخ الإمام العلاّمة، شيخ صناعة الإنشاء، الذي ليس له نظير"[٢]. وأثنى عليه ابن حبيب (ت٧٧٩هـ) بقوله: " كان عَلَماً في عِلم الأدب، حجة في نقل كلام العرب، رحلة للطلاب، قدوة للكتّاب، صائلاً في حومة البراعة، مجليّاً في حلبة أصحاب اليراعة، حسن السيرة والسلوك، كاتباً كتوماً أسرار الملوك"[٣].

ونقل ابن حجر العسقلاني عن صلاح الدين الصفدي قوله: "هو أحد الكَملة الذين عاصرتهم، وأخذت عنهم"[٤]. ووضح لنا ابن شاكر الكتبي المقصود بلفظة "الكملة"، التي يكثر استخدامها في الحديث عن أهل العلم فقال: "وأعني بالكملة الذين يقومون بالأدب علماً وعملاً في النظم والنثر، ومعرفة بتراجم أهل العصر ومن تقدمهم على اختلاف طبقاتهم، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة"[٥]. وهذه الأمور جميعها توافرت في شخصية الشهاب محمود وثقافته.

---

(١) نهاية الأرب: ٣٣/ ص١٤٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، وعنه نقل النعيمي في الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ص١٨٥.

(٣) تذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٣.

(٤) الدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٤، وانظر عبارة الصفدي في أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٤.

(٥) فوات الوفيات: ١/ ١٥٩.

وفاتــــه:

أجمعت المصادر وكتب التراجم على أن وفاة الشهاب محمود كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة للهجرة[١]. وكانوا قد أجمعوا على أن مولده كان سنة ٦٤٤هـ، وبذلك يكون قد عُمِّر إلى أن جاوز ثمانين عاماً. ولكن ابن إياس الحنفي (ت٩٥٢هـ)، انفرد بجعل سنة وفاته سنة عشرين وسبعمائة للهجرة[٢]، وهو بعيد العهد بالشهاب محمود زمنياً، لأنه من أبناء القرن العاشر الهجري، في حين أن النويري وابن شاكر الكتبي من معاصري الشهاب محمود، وقد يكونان ممن اتصلوا به فعلاً. أمّا يوسف النبهاني – وهو من المتأخرين – فقد وهم وجعل سنة وفاته ٧٥٥هـ[٣].

وكان الشهاب محمود نفسه قد ذكر بلوغه السبعين من عمره في شعره، فقال من قصيدة[٤]:

ولّتْ بشاشةُ أيامي فلو عُرِضتْ	عليّ أعرضتُ عنها غير متام
هل بعد سبعين لي إلاّ التأهب من	أجل الرحيل بإسراج وإلجام
الناس يرجون ما قد قدّموا لغدٍ	والخوفُ من سوء ما قدّمتُ قدّامي
ولستُ أرجو سوى عفو الإله وأن	ألقى السلامة في الأخرى بإسلامي

(١) انظر: فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، وشذرات الذهب: ٦/ ص٦٩، والنجوم الزاهرة: ٩/ ص٢٦٤، وتذكرة النبيه: ٢/ ص١٥٢، والدرر الكامنة: ٤/ ص٣٢٦، ونهاية الأرب: ٣٣/ ص١٤٥، ومن ذيول العبر: ص١٤٠، والدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ص١٨٤.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج١ق١ ص٤٥١.

(٣) المجموعة النبهانية: ١/ ص١٣٢.

(٤) الأبيات من قصيدة طويلة، (انظر فوات الوفيات: ٢/ ص١٦١).

وكانت وفاته بدمشق، وقد توفي في منزله قرب باب الناطفانيين[1]، وهي دار القاضي الفاضل[2]، وشيّعه أعيان الدولة، وحضر الصلاة عليه نائب السلطنة الأمير سيف الدين تنكز، ودفن بتربة له أنشأها بالقرب من اليغمورية بسفح قاسيون[3]، وصُلِّيَ عليه بمكة والمدينة[4].

وقد رثاه عدد من الشعراء، منهم صفي الدين الحليّ، الذي قال فيه من قصيدة طويلة[5]:

حبلُ المنى بحبال اليأس معقودُ ... والأمن من حادث الأيام مفقودُ

لا تعجبنّ فما في الموت من عجب ... إذْ ذاك حدٌّ به الإنسان محدودُ

ألم يقولوا بأن الشهب خالدةٌ ... طبعاً فأين شهاب الدين محمودُ

من كان في علمه بين الورى علماً ... يُهدى به إن ذوت أعلامها البيدُ

إن كان يُقصد مقصود لبذل ندى ... فإنه للندى والفضل مقصودُ

إليك قد كان يُعْزَى العلم منتسباً ... واليوم فيك يُعَزَّى العلم والجودُ

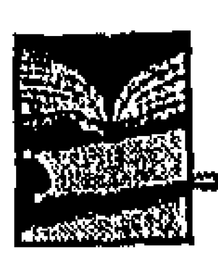
(١) أحد أبواب الجامع الأموي في الجهة الشمالية.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ص١٨٥.

(٣) فوات الوفيات: ٤/ ص٨٢، ونهاية الأرب: ٣٣/ ص١٤٥.

(٤) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٤.

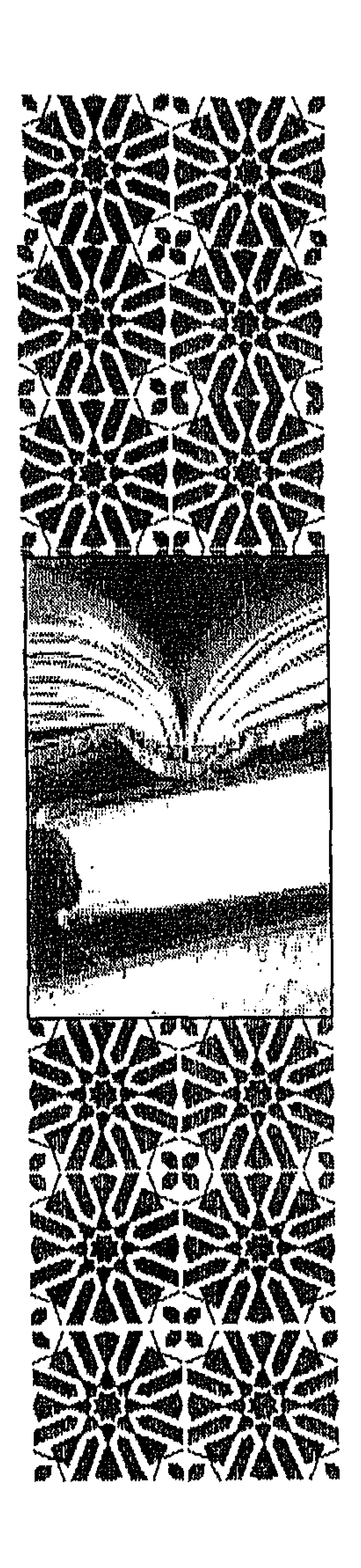
(٥) انظر القصيدة في ديوان صفي الدين الحلي: ٢/ ص٦٢٧- ٦٢٩.



ورثاه صلاح الدين الصفدي بقصيدة طويلة منها[٦]:

مـا حُـزْن قلبـي في البلـوى بمحـدود	ولا فـؤادي في الـسلوى بمعـدود
فـلا تـذمّ امـرأً يبكـي الـدماء علـى	أبي الثنـاء شـهاب الـدين محمـود
مـات الإمـام الـذي كنّـا نَـؤُمُّ لـه	فيمـا نؤمّلـه مـن غـير تفنيـد
وأقفـرت سـاحة الآداب واندرسـت	معـالم العلـم منـه بعـد تـشييد

(٦) انظر القصيدة في أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٥.



الفصل الثاني

ظواهر موضوعيّة في شعْرِه الجِهاديّ

* جهاد إسلامي
* تمجيد البطولة
* تصوير المعارك
* صورة العدو.
* شعر المديح النبوي في موكب الجهاد
* غياب شعر رثاء الأبطال ورثاء المدن

جهاد إسلامي:

يتجلّى الصراع في شعر الشهاب محمود بين المسلمين والغزاة من الصليبيين والمغول في صورة جهاد ديني بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك. وقد وصف القتال الدائر بين الفريقين بأنه (جهاد)، فقال في فتح طرابلس، مخاطباً السلطان قلاوون:

ألا هكذا يا وارث الملك فليكنْ جهاد العدا لا ما توالى به الدهر

وقال في رثائه:

الملك المنصور أكرم من جفا طيبَ الرقاد إلى الجهاد وأوجفا

وقال بعد فتح عكا:

ما كان يحسن أن يجاورنا العدا لو زال عن جفن الجهاد سُباته

وقد تميّزت قصائده الجهادية بالطابع الديني، فهو ينعت الأعداء الغزاة بـ " الكفار"، و" الكافرين"، و" أهل الشرك"، كما في قوله:

مَليكٌ لَهُ بالدين في كل ساعةٍ بشائرُ للكفار منها مآتِمُ

* * * *

ولّما امتطت أعلاه أعلام جيشه وقد لاح فيها للفلاح علائم
تراءت عيون الكافرين خلالها بروق سيوف ضربهن الجماجم

* * * *

أرعَبْتَ أهلَ الشِّرك منك فكلّهم يلقى خيالك واقفاً بإزائه

وقائد الجيش الإسلامي محوط بعناية الله؛ ومؤيد بنصره؛ لأنه يقاتل إرضاءً لله، وإظهاراً لدينه:

لم يبقَ للدين الذي أظْهَرْتَهُ　　　يا ركنه عند الأعادي ثارُ

* * * *

ولله في إعلاء ملكك في الورى　　　مُرادٌ وفي التأييد يوم الوغى سِرٌّ

أمّا جنود الجيش المسلم فهم جنود الله، الذين ينصرونه، والقائد البطل لا يقاتل من أجل متاع دنيوي زائل، وإنما يدافع عن دين الله، يقول في فتح عكا:

ففاجَأتْها جنودُ الله يَقْدمها　　　غضبانُ لله لا للملك والنّشبِ

ويقول في فتح حصن المرقب:

ففاجأته جنود الله يقدمها　　　من بأسك المنذران الخوف والحذر

والنصر الذي يتحقق، لا يمثل انتصاراً للقائد، أو الجيش، وإنما هو نصر للإسلام وللمسلمين جميعاً:

رفعْتَ أعلاه أعلاماً معوّدةً　　　أن لا يزال بها الإسلام ينتصر

وهو نصر للإسلام على الكفر:

فيا ملك الإسلام يا من بنصره　　　على الكفر أيام الزمان مواسم
تَبَلَّجَ ثُغْرُ الدينِ فيها وأشرقتْ　　　أسِرَّتُهُ وانجابَ عن نورِهِ الكُفْرُ

ويمجّد الشاعر أبطال المسلمين لأنهم يذودون عن الدين، ويحرسون أهله، فيقول:

يا راعيَ الإسلام صُنْتَ السّربَ أن　　　تدنو كلاب الشرك من ضعفائه
فاسلمْ لهذا الدين تحرسُ سِرْبَه　　　ويغضُّ جفنُ الشِركِ منك بمائه

ويستخدم الشهاب محمود في تصوير المعارك ألفاظاً دينية، كقوله:

والهامُ تسجدُ والأجسامُ راكعةٌ　　　والموتُ يُقبلُ والأرواحُ ترتحلُ

أقامت صلاة الحرب ليلاً صخورها   فأكثرها شَفْع وأكبرها وَتْرُ
فيا أشرف الأملاك فزت بغزوةٍ   تحصّل منها الفتح والذكرُ والأجرُ

* * * *

فانهض وسِر واملك الدنيا فقد نحلت   شوقاً منابرها وارتاحت السُّرُرُ

والمنهزمون من الأعداء ترتبط هزيمتهم بمكرهم وبحقدهم، يقول:

أرْداهُمُ ما أضمروا من غِلّهم   والمرء يُتبعه الردى تبعاته
غضب الإلهُ لدينه فأتتهم   من حيث لم يتوهموا سطواته

* * * *

وأصبح الحِصْن غِلاً في نحورهم   وعلةً ما لهم في وردها صدر

ويربط الشهاب محمود بين فتح عكا، وعودتها من أيدي الصليبيين وبين شخصية صلاح الدين الأيوبي الذي ارتبط اسمه بالانتصار على الصليبيين، فيقول:

أتيْتَها يا صلاحَ الدينِ معتقداً   بأنّ داعي صلاح الدين لم يخبِ
أَدْرَكْت ثأر صلاح الدين إذ غُصِبَتْ   منه لِسرٍّ طواه اللهُ في اللقب(1)

ويربط بين فتح طرابلس، وتخليصها من أيدي الصليبيين وبين موقعة بدر الكبرى، فيقول مخاطباً قلاوون:

فإن تكُ قد فاتتْك بدْر فهذه   بها أنزَلَ الرحمنُ من نَصْرِه بَدْرُ

---

(1) في هذا إشارة إلى ما ذكرناه في مقدّمة البحث من أن صلاح الدين كان قد فتح عكا سنة ٥٨٣هـ، ثم استولى الفرنج عليها مرّة ثانية سنة ٥٨٧هـ، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ. (انظر المنهل الصافي: ٥/ ص٢٧٢).

تمجيد البطولة: (صورة البطل)

لم يضن الشهاب محمود بالتمجيد والثناء والمدح على كلّ من ساهم بالجهاد ضد الغزاة الصليبيين والمغول، فأغدق صفات التكريم والإجلال على كلّ قائد، أو أمير، أو ملك، شارك في مقاومة المحتلين، من أمثال الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون، وغيرهم ممن جهّزوا الجيوش، وقادوها، وهزموا جحافل الأعداء، ودحروها.

ومن تمجيد البطل المنتصر ما نظمه الشهاب محمود في انتصار الظاهر بيبرس على جموع المغول والروم قرب نهر الفرات، فزحف إليهم، وخاض الفرات بجيشه، وأسر منهم وقتل، وفي ذلك يقول:

خضْتَ الفرات بسابحٍ أقصى منىً	هُوجُ الصَّبا من نعله آثارُ
حَمَلَتْكَ أمواجُ الفراتِ ومن رأى	بحراً سواك تقلّه الأنهار
وتقطعت فرقاً ولم يك طودها	إذ ذاك إلا جيشك الجرار

فالشاعر يمجّد بطولة الظاهر بيبرس في اقتحام الفرات بجيشه مطارداً ملوك المغول، مما رأى فيه الشهاب محمود بطولة خارقة أنطقت لسانه بهذه الأبيات. وواضح أن الشاعر يركز على بطولة بيبرس وفروسيته.

ونجد عند الشهاب محمود – في القصيدة ذاتها – صورة طريفة للظاهر بيبرس، حيث يبيّن عموم فضله، الذي لم يقتصر شكره على الناس، بل شكرته أيضاً القلاع والحصون ووحوش الأرض وجوارح السماء، يقول:

شكرتْ مساعيك المعاقلُ والورى	والتُّربُ والآسادُ والأطيارُ
هذي منعتَ وهؤلاء حميتهم	وسَقَيْتَ تلك وعمّ ذا الإيسارُ

وفي عام ٦٧٥هـ وردت الأخبار إلى الملك الظاهر بيبرس بأن عسكر المغول والروم قد تجمعوا على نهر جيحان، فالتقاهم وحمل عليهم، فقتل من قتل منهم، وفرّ من نجا، فقال من قصيدة في مدح البطل وتمجيده:

مَليكٌ يلوذ الدين من عزماته	بركن له الفتحُ المبينُ دعائمُ
مَليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه	حَنينٌ كذا تهوى الكرامَ الكرائمُ
مَليكٌ له بالدين في كل ساعةٍ	بشائرُ للكفّارِ منها مآتِم

فهو يصف البطل بالعزيمة القوية الصادقة، التي تشكل دعامة أساسية، وركناً مهماً للدين، وهو القائد الذي تأتيه المعاقل والحصون مسلّمة أمرها إليه، وتنتشر له بشائر النصر، ويقيم الكفر المآتم.

وعندما تولّى السلطان المنصور قلاوون الحكم تقدّم لمنازلة الصليبيين، وحرّر طرابلس، فمجّد الشهاب محمود بطولته، وأشاد بجهاده، ودعا المسلمين إلى الإخلاص له، والتفاني في خدمته، فقال:

علينا لمن أولاك نعمته الشكر	لأنك للإسلام يا سيفَهُ ذُخْرُ
ومنا لك الإخلاصُ في صالحِ الدعا	إلى من له في أمرِ نصرتك الأمر
ولله في إعلاء ملكك في الورى	مراد وفي التأييد يوم الوغى سِرُّ

ويمضي المنصور قلاوون في قتاله للصليبيين، فيتقدم لفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة، لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح، فلما استولى عليه قلاوون، مضى الشعراء يمجّدونه، وأنشأوا في ذلك القصائد، منها قصيدة للشهاب محمود، يقول فيها:

كَمْ رَامَ قبلك هذا الحِصنَ من مَلِكٍ	فطالَ عنه وما في باعه قِصَرُ

وكيــفَ تَمنَحُــه الأيــامُ مملكــةً　　　كانــت لدولتــك الغــراء تُدَّخَــرُ

وكيـف يـسمو إليهـا مـن تَـأَخَّر عـن　　　إسـعاده منجـداك القَـدْرُ والقَـدَرُ

ويسجّل الشاعر لممدوحه حلمه، وعظم همته، فيقول:

غـرّ العـدى منـك حِلـم تحتـه هِمَـمٌ　　　لأشـقر الـبرق مـن تحجيلهـا غُـرَرُ

لهـا وإن أشـبهتْ لطـف النـسيم سرى　　　معنـى العواصـف لا تُبْقـي ولا تـذرُ

أمّا الأشرف خليل بن قلاوون، الذي هيّأ الله على يديه فتح عكا آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، فقد حظي بأعلى قدر من المديح والتمجيد. ولفتح عكا معنى خاص فقد بقيت في أيدي الصليبيين ما يقارب قرناً من الزمان، وبفتحها " نظّف الأشرف الشام كلّه من الفرنج"[1]. وكان لهذا الفتح صدى كبير في نفوس الشعراء، فنظموا القصائد في تمجيد الأشرف وتخليد الفتح، ومن ذلك القصيدة البائية للشهاب محمود التي أطال فيها إطالة تناسب أهمية هذا الفتح العظيم، وقد بدأها شاكراً الله متحدثاً عن تحقق أمل، كان المسلمون يعدّونه بعيد المنال:

الحمــدُ لله ذلّــت دولــة الــصّلب　　　وعـزّ بـالترك ديـن المـصطفى العـربي

هـذا الـذي كانـت الآمـال لـو طَلَبـتْ　　　رؤياه في النوم لاستحيت مـن الطلـب

مـا بعـد عكـا وقـد هـدّت قواعدهـا　　　في البحـر للـشرك عنـد الـبرّ مـن أرب

عقيلـة ذهبـت أيـدي الخطـوب بهـا　　　دهـراً وشـدّت عليهـا كـفّ مغتـصب

ثم انتقل إلى تمجيد القائد البطل، فقال:

كـم رامهـا ورماهـا قبلـه ملـك　　　جـمّ الجيـوش فلـم يظفـر ولم يُجَـبِ

(١) المنهل الصافي: ٥/ ص٢٧١.



لم يُلهِه ملكه بل في أوائله … نال الذي لم ينله الناس في الحِقب

لم ترض همّته إلا الذي قعدت … للعجز عنه ملوكُ العجم والعرب

ويثني الشهاب محمود على الأشرف خليل بأنه ينتصر على عدوّه بالرعب، وكان الأشرف خليل –كما تذكر المصادر– " بطلاً، شجاعاً، مقداماً، مهيباً، عالي الهمة، يملأ العين ويرجف القلب، وكان ضخماً سميناً... على وجهه رونق الحسن وهيبة السلطنة"[1]. وقد صرّح الشهاب محمود بهذا المعنى في قوله:

فإن رمتَ حِصْناً سابقتْكَ كتائب … من الرُّعب أو جيش يقدمه النصر

ففي كُلِّ قُطْرٍ للعدى وحُصونهم … من الخوفِ أسيافٌ تُجَرّد أو حَصْر

ويقول في فتح قلاوون لطرابلس:

وأُقسِمُ ما فاجأتَها بل تقدَّمتْ … إليها سَرايا جَيشِكَ، الرُعبُ والذُعْرُ

وأنذرها ما كان مِنْ فتحِ غيرها … وحذّرها لو كانَ ينفَعُها الحِذرُ

والشهاب محمود يثير الهمة والحماسة في نفس الأشرف خليل، ليتابع الجهاد، ويواصل تحرير البلاد، التي احتلها الصليبيون، ويدعوه إلى الاستعداد للقاء الأعداء في عقر دارهم، فيقول:

بُشراك يا ملك الدنيا لقد شرفَتْ … بك الممالك واستعْلَت على الرّتبِ

ما بعدَ عكا وقد لانت عريكتها … لديك شيء تلاقيه على تعب

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها … مدّت إليك نواصيها بلا نصب

من كان مَبْدؤه عكا وصور معاً … فالصين أدنى إلى كفّيه من حلبِ

---

(١) المنهل الصافي: ٥/ ص٢٧١.

ويخاطب الأشرف خليلاً بعد فتحه قلعة الروم:

وما قلعة الروم التي حُزتَ فتحها ... وإن عَظُمتْ إلاّ غيرها جسرُ
طليعةُ ما يأتي من الفتح بعدها ... كما لاح قبل الشمس في الأفق الفجرُ
فسِرْ حيث ما تختار فالأرضُ كلّها ... تطيعك والأمصار أجمعها مِصْرُ
ودُمْ وابقَ للدنيا ليحيا بك الهدى ... ويزهو على ماضي العصور بك العصْرُ

وتغمره نشوة النصر فيهيب بالسلطان قلاوون بعد فتح حصن المرقب، أن ينهض ليملك الدنيا بأسرها، فيقول:

فانهضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد نحلت ... شوقاً منابرها وارتاحت السُّرُرُ

* * * *

وإن تملكِ الأقطارَ شَرْقاً ومغرباً ... فلا بَرَّ يستعصي عليك ولا بَحرُ

وفي الأبيات التي عرضناها، وغيرها مما لم نعرضه أبرز الشهاب محمود كلّ واحد من ممدوحيه في صورة المجاهد التقي، وهي صورة طبيعية لمقاتل يقاتل تحت لواء الدين، ضد أعداء يقاتلون باسم الدين، والشواهد من شعره على هذه الصورة كثيرة، منها هذه الأبيات التي تصور الظاهر بيبرس جامعاً بين أصفى صور التقوى، وأقوى صور الشجاعة في الجهاد، حتى إن الشاعر تأخذه نشوة النصر والإعجاب بممدوحه فيجعل الدين لائذاً به:

كذا فلتكنْ في الله تمضي العزائم ... وإلاّ فلا تجفو الجفون الصوارمُ
عزائم حاذَتْها الرياح فأصبحت ... مخلّفة تبكي عليها الغمائم
بجيش تظلّ الأرض منه كأنها ... على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
تحيط بمنصور اللواء مظفر ... له النصر والتأييد عبد وخادم

مليك يلوذ الدين من عزماته — بركن له الفتح المبين دعائم
ولما رمى الروم المنيع بخيله — ومن دونه سدّ من الصخر عاصم
فيا مَلِكَ الإسلامِ يا مَنْ بِنصْرِه — على الكُفر أيام الزمان مواسم
لِتَهْنَ بفتحٍ سار في الأرض ذِكْرُه — سُرى الغيثِ تحدوه الصَّبا و النعائم
بذلْتَ له في اللهِ نفساً نفيسةً — فوافاك لا يثنيه عنك اللوائم

ويصف الشهاب محمود الأهداف التي يسعى البطل القائد إلى تحقيقها، وهي حفظ ديار الإسلام آمنة من العدوان، ولذا فهو يمجد القائد الذي يعمل على الدفاع عن الإسلام ويأخذ بثأره من أعدائه، يقول من قصيدة في مدح الملك الظاهر بيبرس:

سِر حيث شئت لك المهيمنُ جارُ — واحْكُمْ فطوعْ مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرْته — يا ركنه عند الأعادي ثارُ

وصورة المجاهد الشجاع التقي يسبغها الشهاب محمود على السلطان الأشرف خليل حيث يتصور الشاعر النبي محمداً (ﷺ) اطّلع على جهاده، وقرّت به عيناه:

وأَطلعَ اللهُ جيشَ النَّصْرِ فابتدرَت — طلائعُ النَّصرِ بين السُّمر والقُضبِ
وأشرفَ المصطفى الهادي البشير على — ما أسلف الأشرفُ السلطان من قرب
فقرّ عيناً بهذا الفتح وابتهجتْ — بفتحه الكعبة الغراء في الحُجبِ

ويكرّر هذا المعنى في قصيدة أخرى فيقول:

فيا أشرف الأملاك فزْتَ بغزوةٍ — تحصّل منها الفتح والذكر والأجرُ
ليُهْنِك عند المصطفى أنّ دينه — توالى له في يُمْن دولتك النّصرُ
وبَشراك أرضَيت المسيح وأحمدا — وإنْ غضب التكفورُ من ذاك والكفرُ
ودُمْ وابقَ للدنيا ليحيا بك الهدى — ويزهى على ماضي العصور بك العصرُ

وتزداد صورة البطل وضوحاً وإشراقاً حين يقارن بمن هم دونه من الحكام، الذين عجزوا عن القيام بمثل ما قام به، كما في قول الشهاب محمود يمجّد قلاوون، ويذكر فتحه حصن المرقب:

كم رام قلبك هذا الحصن من مَلِكٍ ... فطال عنه وما في باعه قِصَرُ
وكيف تمنحه الأيام مملكة ... كانت لدولتك الغراء تدّخرُ
وكيف يسمو إليها من تأخر عن ... إسعاده منجداك القدرُ والقدر

وممدوحوه، الذين يمجدهم يعجز الشاعر البليغ عن وصف أفعالهم، ولا يستطيع الخطيب المفوّه أن يفيهم حقّهم من التمجيد والثناء، يقول في تمجيد قلاوون:

مَحَوْتَ شِعارَ الكُفْرِ عَنْها فما عَسَى ... يقومُ به في وصف أفعالك الشِعْرُ
وماذا به يُثني عليكَ مفوَّهٌ ... ولا قدرهُ يَأتي بذاك ولا عُشْر

وإذا كان الناسُ قد عجزوا عن شكرهم، فإن الله سبحانه وتعالى وملائكته يشكرون لهم فتوحهم العظيمة، فيقول :

إن لم يُوَفِّ الورى بالشكر ما فَتَحَتْ ... يداك فاللهُ والأملاكُ قد شكروا

ولم يقتصر الشهاب محمود في تمجيد القائد المسلم على الجانب العسكري، بل تعدّى ذلك إلى جوانب أخرى. ففي الوقت الذي هو فيه مصدر شدة وبأس على الأعداء، فهو مصدر خير وبركة وعطاء للرعية. وقد جمع الشهاب محمود لممدوحه أقصى ما تتمنى أمة في حاكمها من توفير الأمن، وردّ كيد الأعداء، والسهر الدائم على شؤون الرعية، والعفو والإحسان، والعدل وطاعة الله، وذلك عندما مدح نائب السلطنة بالشام حسام الدين لاجين:

قد جمّع اللهُ فيه كُلَّ مفترِقٍ ... في غيره فهو دون الناس مُكْتَمِلُ
فَعَنْ ندى يده حدِّثْ ولا حرجٍ ... اليمُّ تمَّ و عمّ العارضُ الهطل



أَستغفرُ الله أيـن الغيـثُ منفـصلاً ... مـن بِـرّه وهـو طـول الـدهر متّـصلُ

أحـاط بالنـاس سـوراً مـن كفالتـه ... ظِـلٌّ لهـم وعلـى أعدائـه ظُلَـلُ

أضـحوا بـه في مهـاد الأرض يكلأهـم ... مـن رأفـةٍ بهـم يقظـان إن غفلـوا

يحنـو علـيهم و يعفـو عـن مـسيئهم ... حِلْماً و يـصفح عـنهم إن هـم جهلـوا

وأعـدلُ النـاس أيامـاً فـلا شـططٌ ... في الحكـم منـه ولا حيـف و لا مَلَـلُ

أطـاع خـالقـه فيمـا تقلّـده ... فـما عـن الـدين بالـدنيا لـه شُغُـل

تهـوى أسِـنّته بـيض النحـور فمـن ... آثارهـا الحمـرِ في أجيادهـا قُبَـلُ

تـدمى سُـطاه و تنـدى كفّـه كرَمـاً ... كالغيـثِ يهمـي وفيـه الـبرق يـشتعلُ

ومما يسترعي النظر في تمجيد الشهاب محمود للقادة المجاهدين، أنه لم يغب عن باله أن يمجد الجيوش التي كان يقودها أولئك الأبطال، ففي مديحه للأشرف خليل عندما فتح قلعة الروم بعد فتح عكا، يقول في تمجيد جيشه:

ليـوثٌ مـن الأتـراك آجامهـا القنـا ... لهـا كـلّ يـوم مـن ذُرى ظَفـرَ ظُفْـرُ

يُـرى المـوتُ معقـوداً بهـدْب نبـالهم ... إذا مـا رماهـا القـوس والنظـر الـشّزْرُ

إذا صَـدَموا صُـمّ الجبـال لَزُلزِلـتْ ... وأصـبح سـهلاً تحـت خـيلهم الوعـر

ولـو وردتْ مـاءَ الفـراتِ خيـولُهم ... لقيـل هنـا قـد كـان فـيما مـضى نهـرُ

ويقول في تمجيد الجيش الذي فتح عكا:

وجئتهـا بجيـوش كالـسيول علـى ... أمثالهـا بـين آجـام مـن القـضب

جيشٌ من التُّرك تَرْك الحرب عندهم ... عـارٌ وراحـتهم ضرب مـن الـضرب

تـسنّموهـا فلـم يـترك تـسنّمهم ... في ذلـك الأفـق برجـاً غـير منقلـب

أتـوا حماهـا فلـم تمنـع وقـد وثبـوا ... عنهـا مجـانيقهم شيئـاً و لم يثـب

ولم يقتصر الشهاب محمود في تمجيده على السلاطين وجيوشهم، وإنما مجّد أيضاً نوّاب السلاطين وغيرهم ممن شاركوا في قتال الأعداء، ومدّوا أيديهم لاستنقاذ البلاد المغتصبة، ومن ذلك ما قاله من قصيدة في حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بدمشق، الذي شارك في موقعة حمص ضد المغول سنة ٦٨٠هـ تحت قيادة السلطان المنصور قلاوون:

قد أرهفَ الملكُ المنصورُ منك على	جيش الأعادي حساماً حدُّه الأَجلُ
يُخبِركَ جمْعهمُ والفضْلُ ما شَهِدَتْ	به العدا أنه ليثُ الشّرى البطل
وأنه خاض في هيجائها وَجَلا	غِمارها واصطلاها وهي تَشْتَعِل

وهكذا مجّد الشهاب محمود في قصائده الجهادية الأبطال الذين كان لهم دور في مقاومة الغزوين: الصليبي والمغولي، فوسمهم بصفات الشجاعة، والتقوى، والكرم، وغيرها من الصفات التي تتجسّد فيها الفضائل المتعارف عليها في شخصية الحاكم المسلم.

تصوير المعارك[1]:

واكب شعر الشهاب محمود، أحداث وقائع الغزوين الصليبي والمغولي، وسجّل المعارك التي انتصر فيها المسلمون ووصف وقائعها وأحداثها.

شهد الشهاب محمود المعارك التي أدت إلى انحسار الوجود الصليبي، ثم القضاء على آخر حصون الصليبيين، وطردهم من بلاد الشام. كما شهد بداية المدّ الإسلامي الذي ألحق ضربات قاسية، وهزائم منكرة بالمغول.

تعدّدت الانتصارات بعد معركة عين جالوت (٦٥٨هـ)، ومنها تلك المعركة المظفرة، معركة عبور الفرات سنة ٦٧١هـ، حيث توجه الظاهر بيبرس للقاء المغول، فلحق بثلاثة آلاف فارس منهم على شط الفرات، فخاض النهر بجيشه، وتبعته العساكر، والتقوا بهم في الماء، فقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، وأسروا ما يزيد على مائتي نفس، وهرب الباقون. لقد أثار منظر الظاهر بيبرس، وهو يخوض الفرات بجيشه شاعرية الشهاب محمود، فقال بعد الإشادة بالقائد[2]:

حَمَلَتْكَ أمواجُ الفُراتِ ومَنْ رأى ... بحراً سواك تُقِلُّه الأنهار
لّما تراقصت الرؤوسُ وحُرّكتْ ... من مُطْرِبات قِسّيك الأوتارُ
وتقطّعتْ فِرقاً ولم يك طودها ... إذ ذاك إلا جيشُك الجرّار
رشّتْ دماؤُهم الصعيدَ فلم يَطِر ... منهم على الجيش السعيد غُبارُ

---

(١) لمزيد من التفصيل في وصف المعارك عند الشهاب محمود انظر: الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين: ٢/ ص١٨٤ - ١٩٢.

(٢) انظر تفصيل المعركة والأبيات في: عيون التواريخ: ٢١/ ص١٠ - ١١، وفوات الوفيات: ١/ ص٢٤٠، والبداية والنهاية: ١٣/ ص٢٦١، والنجوم الزاهرة: ٧/ ص١٥٩، والوافي بالوفيات: ١٠/ ص٢١٠.

وهذه الأبيات تظهر جرأة الظاهر بيبرس وهو يخوض الفرات وراء ملوك المغول، وهي أبيات حماسية حافلة بالصور والكلمات التي تجسّم صورة المعركة وضراوة القتال.

وفي سنة ٦٧٥هـ توجه الظاهر بيبرس بعساكره إلى سلاجقة الروم، حيث التقى التتار وأحلافهم، ووقعت بينه وبينهم معركة حامية، كان النصر فيها حليف المسلمين، فنظم الشهاب محمود قصيدة حماسية استهلها بوصف كتائب المسلمين التي شاركت في المعركة[1]:

سَرتْ من حِمى مصر إلى الروم فاحتوتْ	عليه وَسُوراه الظُّبا واللهاذم
بجيش تَظَلّ الأرض منه كأنها	على سعة الأرجاء في الضيق خاتَمُ
كتائب كالبحر الخِضَمِّ جيادها	إذا ما تهادتْ موجُه المتلاطمُ
تحيط بمنصور اللواء مظفّرٍ	له النصرُ والتأييدُ عبدٌ و خادم

ثمّ انتقل إلى تصوير المعركة تصويراً دقيقاً، جعلنا نرسم لها في مخيلتنا صورة واضحة جليّة، يقول[2]:

ولما امتطت أعلاه أعلام جيشه	وقد لاح فيها للفلاح علائم
تراءت عيون الكافرين خلالها	بروق سيوف صوبهن الجماجم
وأبرزت الأرض الكمين و قد علت	عليه طيور للحِمام حوائم
فأهوى إليهم كل أجرد طائر	تطير به نحو الهياج القوائم
يخوض الوغى لم تثنه اللجم راقصاً	دلالاً ويغدو و هو في الدمّ عائم

(١) انظر تفصيل المعركة والأبيات في: عيون التواريخ: ٢١/ ص١٠٢ – ١٠٤، والنجوم الزاهرة: ٧/ ص١٧٠ – ١٧٢، والوافي بالوفيات: ١٠/ ص٢١٠، وذيل مرآة الزمان: ٣/ ١٧٨.

(٢) انظر الأبيات ص ١٥٠ من بحثنا هذا.



وسالت عليهم أرضهم بمواكب ... لها النّصر طوعٌ والزّمان مسالم

أدارت بهم سوراً منيعاً مُشَرَّفاً ... بِسُمر العوالي ما له الدّهْرَ هادم

وفي سنة ٦٧٨هـ فتح المنصور قلاوون طرابلس[١]، فوجّه إليه الشهاب محمود قصيدة افتتحها بشكر الله الذي أنعم على المسلمين بنعمة ذلك النصر، ثم أشاد بجهود المنصور في حماية الإسلام، وانتقل بعد ذلك إلى وصف مناعة المدينة، لإحاطة البحر بها، فكأنها اتخذت منه خندقها[٢]:

نهضتَ إلى عليا طرابلس التي ... أقلّ عناها أن خندقها البحر

مُمَنّعةٌ بِكْر وهَلْ في جميع ما ... تَمَلَّكْتَه إلا مُمَنَّعَةٌ بِكْرُ

وينقل إلينا صورة حصارها على يد المنصور وجيشه الذي شبهه بالبحر:

ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت ... تميد وقد أربى على بحرها البحر

وظلّت لذي بحرين أنكاهما لها ... وأقتله البحر الذي جرّه مصر

وأخذ يصف مجانيق المنصور التي أعدّها لفتحها، فقد نصبت ضحى، وأخذت قذائفها تعمل في أبراج المدينة المحاصرة، وتنقض عليها كما ينقض النسر على فريسته:

كأن المجانيقَ التي أُوتِرتْ ضُحىً ... عليها لها في ثلم أبراجها وَتْرُ

أصابعها تومي إليها ليسجدوا ... فتقبل منها دون ساكنها الجدرُ

تُحلّق في جوّ السماء وترتمي ... إليهم كما ينقض في حالق نسر

---

(١) كان فتحها سنة ٦٧٨هـ في النجوم الزاهرة: ٧/ ص٣٢٣، وسنة ٦٨٨هـ في حوادث الزمان لابن الجزري: ٤/ ٢٣، وأكثر المصادر تذكر أنّ فتحها كان سنة ٦٨٨هـ.

(٢) انظر تفصيل المعركة، وأبيات الشعر في: كنز الدرر وجامع الغرر: ٨/ ص٢٩٥، وذيل مرآة الزمان: ٤/ ص٢٥٦ – ٢٥٩، والنجوم الزاهرة: ٧/ ص٣٢٣- ٣٢٤.

لها شرر كالقصر تَرمي بها العدا فلا برج يستعصي عليها ولا قصر

وأخذت النقوب تسري في أبراج المدينة وأسوارها، وما لبثت أن تداعت، فتهدّمت أركانها، وداهمتها جيوش المنية:

ومن تحتها تلك النقوب كأنها إذا ما تمشّت في ضمير الثرى سِرّ

فزلزلتها بالضرب فانهدّ ركنها ولم يبق من دون المنايا لها ستر

ويصل الشاعر إلى نتيجة المعركة، ويتحدث عمّا أصاب أهلها من قتل وأسر:

قَسَمْتَهم شَطْرين غيرَ غريقِهم فللسّيفِ شَطْر والقيودُ لها شَطْر

وفي سنة ٦٨٠هـ فتح المنصور قلاوون حمص، فنظم الشهاب محمود قصيدة في مدح نائب السلطنة بدمشق حسام الدين لاجين، وكان ممن حضروا تلك الموقعة تحت قيادة قلاوون، ومن تلك القصيدة في وصف المعركة قوله[1]:

سَلْ يومَ حِمْصَ جيوشَ المُغل عنه وقد ضاق الفضاءُ بهم واستُدّتِ السبُل

والهامُ تسجدُ والأجسام راكعةٌ والموت يُقْبِلُ و الأرواح تَرتحلُ

والبيضُ تُغمدُ في الأبطال عارية وتنثني و عليها منهم حُللُ

والخيلُ تَخْفى وتخفى في العجاج فإن بدت غَدت وهي بالهامات تنتعلُ

فالمعركة –كما يظهر من الأبيات– مليئة بالحيوية والحركة الظاهرة والخفية، فللموت إقبال، وللأرواح ارتحال، وللخيل إقدام وتراجع، وهي تدوس الرؤوس فتتخذها نعالاً بعد أن حفيت، وتثير لشدة حركتها الغبار فيحجبها عن العيون.

---

(١) الأبيات في الوافي بالوفيات: ٢٤/ ص٣٨٧- ٣٨٩.



وفي سنة ٦٨٤هـ فتح المنصور قلاوون حصن المرقب[١] المنيع، فوجّه إليه الشهاب محمود قصيدة طنانة[٢]، هنأه فيها بذلك الفتح، وعبّر عن ابتهاج الأمة بتحقيق آمالها، وأشاد بحلم السلطان، وعلو همته، ثم انتقل إلى وصف مناعة الحصن، فقال:

أوردْتَها المرقب العالي وليس سوى	ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنّه وكأنّ الجوَّ يكنفه	وَهْمٌ تمثّله في طيِّها الفِكَرُ
يختالُ كالغادة العذراء قد نَظَمَتْ	منه مكانَ اللآلي الأنجم الزهر
لها الهلالُ سوار والسُّها شَنَفٌ	والقَلْبُ قُلْبُ ومُسْوَدُّ الدجى طرر
تعلو الرياحُ إليه كي تحيطَ به	خبراً وتدنو وما في ضمنها خبر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى	أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
وليس يروى بماء السحب مصعدة	إليه من فيه إلا وهو منحدر

ويصف المعركة التي انتهت بفتح الحصن وتخريبه، حيث سار السلطان بجنوده الشجعان ضحى، وأشعلوا حوله النار المتأججة، التي ألسنتها السيوف، وشررها النبال، فما لبثت تلك النار أن التهمت مجانيق الصليبيين، وأخذ الحصن المنيع يئن تحت وطأة أسلحة الجند الفاتكة، وأخذت النقوب في الحصن تدبّ في مفاصله، حتى غدا كالجسم المعتل، وما زال به حتى زلزلت قواعده، وسقط أعلاه، وهوى بمن فيه من المقاتلين:

وأَضْرَمَتْ حوله ناراً لها لَهَبٌ	من السيوفِ ومن نبل الوغى شَرَرُ
وأمْطَرَتْه المجانيقُ التي نشأتْ	ولم يكن قبلها يهمي به المطرُ
وكم شكا الحصن ما يلقى فما اكترثت	يا قَلْبَها أَحديدٌ أنتَ أمْ حَجَرُ

(١) بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام، معجم البلدان: ٥/ ص١٠٨.

(٢) انظر القصيدة وفتح حصن المرقب في: النجوم الزاهرة: ٧/ ص٣١٧-٣١٩، وذيل مرآة الزمان: ٤/ ص٢٥٦-٢٥٩.

وللنقــوب دَبيــبٌ فــي مفاصلــه   تثيــرُ سُقْمــاً ولا يبــدو لــه أثــر
أضحى بـه مثل صـبّ لا تبينُ بـه   نـارُ الهوى وهـي في الأحشاءِ تَسْتَعِرُ
ركبت في جنـدك الأولى إليـه ضُحىً   والنصر يتلـوك منـه جنـدك الأخـر
قــد زال تجلــى قــواه عــن قواعـده   وخــرّ أعــلاه نحــو الأرض يبتــدر
وســاخ وانكــشفت أقبــاؤه وبـــدا   لديك من مضمرات النصر ما ستـروا
فــمال يهــوي إلـيهم كـلُّ ليثٍ وغـىً   لـه مـن البيض نــاب والقنـا ظفـر

وفي سنة ٦٩٠هـ تم فتح عكا، آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، على يد الأشرف خليل بن قلاوون، فنظم الشهاب محمود قصيدة خلّدت فتح عكا، استهلها بحمد الله على هذا النصر الذي كان يبدو بعيد التحقيق، عسيراً لا ينال:

الحمــدُ للــه ذلّــت دولــةُ الـصُّلُبِ   وعـزَّ بـالترك ديـنُ المصطفى العـربي
هذا الـذي كـانـت الآمـالُ لـو طَلبتْ   رؤياه في النوم لاستحيتْ من الطّـَلبِ
مـا بعـد عكـا وقـد هُـدّتْ قـواعِدُهـا   في البحـر للـشرك عنـد الـبر مـن أرب

ثم انتقل إلى وصف مناعة المدينة، التي حصّنتها الطبيعة من إحدى جهاتها بسور جبلي شاهق منيع، ومن الجهة الأخرى ببحر خضم زاخر. وأحيطت بجيش مدجج بالسلاح، وسور كثير الأبراج، تقذف من أعلاها النبال، والمجانيق التي ترسل قذائفها كأنها الشهب تنقض من السماء:

ســوران: بـرٌّ وبحــرٌ حــولَ ســاحتها   دار وأدناهمــا أنــأى مــن القطــب
خرقــاء أمنَــعُ سوريهــا وأحــصنه   غلـب الكمــاة وأقــواه علـى النّـوب
مــصفّـح بــصفاح حولهــا أكــَمٌ   مــن الرمــاح وأبــراجٌ مــن اليَلــَبِ
مثـل الغمائـمِ تهـدي مــن صــواعقها   بالنبل أضعافَ ما تهدي من الـسُّحُب
كـأنمــا كــلّ بــرجٍ حــوله فلــكٌ   من المجانيق يرمـي الأرض بالـشُّهبِ



وأسلوب فتح عكا لا يختلف كثيراً عن طريقة فتح طرابلس، فقد تقدّمت الجيوش الإسلامية، بأعداد لا تحصى، وعدّة كاملة، فحاصرت عكا، وخرقت أسوارها بالمجانيق، وبينما كانت سيوف المسلمين تنهال على رقاب الصليبيين، تهاوت أبراج عكا تحت وقع ضربات المجانيق، وتلطخت جدران الأبنية بدم القتلى من الفرنج فقال:

وجئتها بجيوشٍ كالسيول على	أمثالها بين آجامٍ من القضب
وحُطْتها بالمجانيق التي وقفت	إزاء جدرانها في جَحفلٍ لَجِبِ
ورُضْتَها بنقوبٍ ذلّلتْ شمماً	منها وأبدَتْ محياها بلا نُقب
وغنّت البيض في الأعناق فارتقصت	أبراجها لعباً منهنّ باللعب
وخُلِّقَتْ بالدم الأسوار فانفغمت	طيباً ولولا دماءُ الخبثِ لم تطب
بل أحرزتهم ولكنْ للسيوف لكي	لا يلتجي أحد منهم إلى الهرب
أضحت أبا لهب تلك البروجُ وقد	كانت بتعليقها حمالةَ الحطب

أمّا المعركة فقد فاقت بأهوالها كلّ ما سبق من غزوات وفتوح، وعجز النظم والنثر عن إيفائها حقها من الوصف والتصوير، إذ غاصت سيوف المسلمين في لجج دماء الصليبيين، واخترقت رماحهم عيون الأعداء، كأنها أشطان تهوي في بئر، واشتعلت النار، واشتد الحر إلى درجة انصهرت معها دروع الفرنج، فانتشر الذعر، وساد الفزع، فالأبطال تعطلت حواسهم، وتهاووا إلى الأرض، وسالت دماء الغزاة، وغدا ماء البحر كالراح بينما الغرقى منهم يشبهون الحبب، فيقول:

يا يوم عكا لقد أنسيتَ ما سبقت	به الفتوحُ وما قد خُطّ في الكتب
لم يبلغ النطّق حدّ الشكر منك فما	عسى يقوم به ذو الشعر والخُطُب
كانت تمنّي بك الأيام مبعدةً	فالحمد لله نلنا ذاك عن كثب
وخاضت البيضُ في بحرِ الدماء وما	أبدتْ من البيض إلاّ ساقَ مختضب

وغـاصَ زُرقُ القنـا في زُرْقُ أعينهـم ... كأنهـا شَطَـنٌ تهـوي إلـى قُلُـبِ

توقَّـدَتْ وهـي غرقـى فـي دمـائهم ... فزادهـا الطفـحُ منهـا شـدة اللهـب

وذاب مـن حرهـا عنهـم حديـدهم ... فَقَيّدَتْهـم بهـا ذعـراً يـدُ الرَّهـب

كـم أبرزتْ بطـلاً كـالطّود قد بطلت ... حواسـه فغـدا كـالمنزل الخَـرب

كـأنـه وسنـانُ الرمْـحِ يطلبـه ... بـرجٌ هـوى ووراه كـوكـب الـذّنب

أجرت إلى البحـر بحـراً مـن دمائهـم ... فـراح كـالراح إذ غرقـاه كـالحبب

وفي القصيدة نفسها يتحدث الشاعر عن فتح مدينة صور، دون حرب، فما أن رأت عكا قد استسلمت، حتى أصابتها عدواها، فأحرقها المسلمون، وارتفعت بها ألسنة النيران، فأطفأ اشتعالها ما كان في صدور المسلمين من كرب وهم، يقول:

وتمـت النعمـةُ العظمـى وقـد كملتْ ... بفـتح صـور بـلا حـصرٍ ولا نَـصَب

وأفلـت البحـر منهـم مـن يخبّـر مـن ... يلقـاه مـن قومـه بالويـل والحـرب

أختـان فـي أنَّ كـلاًّ مـنهما جمعـتْ ... صليبةَ الكفـر لا أختـان فـي النسب

لـما رأت أختهـا بـالأمس قـد خربـت ... كـان الخرابُ لهـا أعـدى مـن الجـرب

وهكذا فقد تناول الشهاب محمود وصف معركة عكا وحصار قلاعها، وسقوط حصونها، واشتعال النيران فيها بضروب من القول، وفنون من التعبير، فقال:

مَـرَرْتُ بعكـا بعـد تخريـب سـورها ... وَزنـدُ أُوارِ النـارِ في وَسْـطِها وارِ

وعاينْتُهـا بعـد التنصُّر قـد غَـدَتْ ... مجوسيـةَ الأبـراجِ تـسجد للنـار

فهو يركز على حريق المدينة الحصينة، ويحرص على ذكر تنصّرها لحيازة الصليبيين لها مدة طويلة، ثم وصف مآل أمرها بعد المعركة وحريقها، وقد كنّى الشاعر عن ذلك بأن أبراج أسوارها وقلعتها سجدت للنار فهي مجوسيّة.

وللشهاب محمود قصيدة في فتح قلعة الروم[1] على يد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩١هـ، أثنى فيها الشاعر على شجاعة ممدوحه، التي أثارت الرعب في قلوب الأعداء، فقال:

فإنْ رمت حصناً سابقتك كتائبٌ ... من الرعب أو جيشٌ يقدمه النصر
ففي كل قطرٍ للعدى وحصونهم ... من الخوف أسياف تجردُ أو حَصْر
فلا حصنَ إلا وهو سجنٌ لأهله ... ولا جسدٌ إلا لأرواحهم قبر

ووصف القلعة التي فتحها ممدوحه وصفاً جعلها في غاية الحصانة والمناعة على الفاتحين، فهي قلعة مخفية بين الجبال، يعجز النسر عن بلوغ أعلاها، وهي صعبة المسالك، وعرة الطرق، تضل العقبان والنسور في سبيل الوصول إليها:

محجّبةٌ بين الجبالِ كأنها ... إذا ما تبدَّت في ضمائرها سِرُّ
يحيط بها نهران تبرز فيها ... كما لاح يوماً في قلائده النحرُ
تخاضُ متونُ السّحب فيها كأنها ... إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
على هُضُبٍ صمّ يكلّم صخرها الـ ... ـحديد وفيها عن إجابته وَقر
لها طرق كالوهم أعيا سلوكها ... على الفِكْر حتى ما يُخيّلهُ الفكر
إذا خطرتْ فيها الرياحُ تعثّرتْ ... أو الذرُّ يوماً زلّ عن متنه الذر
يضلُّ القطا فيها ويخشى عقابها الـ ... ـعقابُ ويهفو في مراقبها النسر

وانتقل الشاعر إلى تصوير الجيش الذي فتح القلعة، فهو مكوّن من شجعان الترك الذين تراصت صفوفهم، بحيث منعت الريح أن تنفذ من بينهم، وبرعوا في رمي السهام،

(١) انظر تفصيل هذا الفتح في البداية والنهاية: ١٣/ ص٣٢٦.

وفي إصابة الهدف، فكأنّ الموت معقود بأسنّة سهامهم، وهم ذوو عزم يزلزل الجبال، ولكثرتهم فإن ماء الفرات لا يكفي لشرب خيلهم، فقال:

ليوثٌ من الأتراك آجامها القنا	لها كلَّ يوم في ذرى ظَفَر ظُفْر
فلا الريحُ تسري بينهم لاشتباكها	عليهم ولا ينهلُّ من فوقهم قَطْرُ
يُرى الموتُ معقوداً بهُدْب نبالهم	إذا ما رماها القوسُ والنظر الشزر
إذا صدموا صمَّ الجبالِ تَزلزلتْ	وأصبحَ سهلاً تحت خيلهم الوعْرُ
ولو وردتْ ماءَ الفرات خيولُهم	لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر

وقد أحاط هذا الجيش بقلعة الروم، إحاطة الخاتم بالخنصر، فقذفها الجنود بسهام كثيفة، ورموها بقذائف مجانيقهم، فتهاوت وسقطت، وارتفعت فوقها رايات الملك الأشرف، وأضحت ثغراً إسلامياً منيعاً:

أداروا بها سوراً فأضحت كخنصرٍ	لدى خاتم أو تحت منطقةٍ خصر
وأَجْرَوا إليها من بِحار أكُفّهم	سحابَ ردىً لم يَخْلُ من قطره قطر
كأنّ المجانيقَ التي قُمنَ حولها	رواعدُ سخطٍ وَبْلُها النارُ والصَّخْر
فأحرزْتَها بالسّيفِ قَهْراً، وهكذا	فتوحك فيما قد مضى كُلُّهُ قَسْر
وأضحت بحمد الله ثغراً ممنعاً	تبيد الليالي والعدا وهو مُفْتَرُّ

وهكذا نقل الشهاب محمود الحلبي أحداث المعارك الأخيرة من الحروب الصليبية نقلاً فيه شيء كثير من الحركة والحيوية، فساهم إلى حدّ كبير في شحذ الطاقات، واستنهاض العزائم نحو توجيه ضربات قاصمة للوجود الصليبي في أراضي المسلمين ببلاد الشام.

ولنا على وصف المعارك عنده الملاحظات الآتية:

١. من الظواهر الموضوعية التي تسترعي الانتباه في وصف المعارك والفتوح عند الشهاب محمود، تلك هي مقارنة الفتح بالفتوح السابقة، واستعظام كل فتح من تلك الفتوح، وأنه فاق أخبار الفتوح الأولى، كما أنه كان أمراً بعيد التحقيق، بل هو أقرب إلى الحلم والخيال، ولكنه ما لبث أن أصبح على يد الممدوح حقيقة ماثلة للعيان، وهذا المعنى نجده يتردد في كل قصيدة من قصائده.

ولا بأس من أن نكرر هنا بعض الأبيات التي تبرز هذا المعنى في قصائده المختلفة:

يقول في فتح طرابلس:

ولما غـدَتْ لا فخر مثل افتتاحها ... أبى الله إلا أن يكون له الفخر

فكم مرّ من دهرٍ وما مسّها أذىً ... وكم راح من عمر وما راعها حصر

وكم ليثُ غاب رامها في جيوشه ... وغاب ولم يحرز له ظَفَراً ظُفْرُ

ويقول في فتح حصن المرقب:

كم رام قبلك هذا الحِصْنَ مِنْ مَلك ... فطال عنه وما في باعه قِصَرُ

وكيف تمنَحُه الأيامُ مملكةً ... كانت لدولتك الغراء تُدَّخَر

ويقول في فتح عكا:

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيتْ من الطلب

كم رامها ورماها قبله ملكٌ ... جمُّ الجيوشِ فلم يظفر ولم يجب

لم ترضَ هِمّته إلاّ الذي قعدت ... للعجز عنه ملوك العُجم والعرب

وقد أصبحت هذه المعاني ظاهرة من ظواهر الشعر في عصر الحروب الصليبية، ويبدو أن تأثر الشعراء بالسابقين واعتمادهم على التراث الشعري الحماسي الموروث، هو الذي رسّخ هذه المعاني في أذهانهم مما جعلهم يرددونها في قصائدهم.

٢. على الرغم من تعدد المعارك التي وصفها، واختلاف قادتها، فإن وصفه لتلك المعارك ومجريات أحداثها، يكاد يكون متماثلاً إلى حد كبير، ففتح طرابلس، وفتح عكا، وفتح قلعة الروم، كل هذه الفتوح جاءت وفق خطة واحدة،، تتلخص بتقدم الجيش الإسلامي، ومحاصرة المدينة المفتوحة، وقذفها بالمجانيق، التي تخترق أسوارها، وأبراجها، ومن ثم تهدمها، وتشعل فيها النيران، وتتهاوى حصونها، وقلاعها، ويدخلها الجيش المسلم...

فهو وإن كان قد وصف حصانة المدينة ومناعتها، وذكر أنواعاً مختلفة من أدوات القتال، من رماح وسيوف، ودروع، ومنجنيقات، وغيرها، إلا أن ذلك يأتي عنده على نمط واحد مما يضعف سمة الواقعية والدقة في وصفه، ومما يجعله لا يقدّم لنا صورة معركة مُحدّدة تختلف عن المعارك الأخرى، اللهم إلاّ ما كان من ذكره لاسم القائد، أو إيراده اسم المعركة أو المدينة. ولو انتزعنا الأبيات التي ورد فيها اسم القائد، أو اسم المعركة من بقية أبيات القصيدة، لصارت قصائده متشابهة، تصدق أبياتها على كلّ معركة من المعارك التي يصفها. بمعنى أن وصفه للوقائع كان يفتقر إلى التحديد الدقيق للواقعة، وإبراز معالمها الخاصة بها، المميزة لها عن سواها.

٣. وهذه الملاحظة تقوم على عدم التسلسل في وصف أحداث الوقائع الحربية. فنحن نجد الشهاب محمود يتحدث في بعض قصائده عن نتيجة المعركة، وانتصار الجيش المسلم، ثم ينتقل إلى وصف تلك المعركة ويتحدث عن مجريات أحداثها. ومثال ذلك

قصيدة في فتح عكا، التي استهلها بحمد الله، وتمجيد بطولة القائد، ثم أعلن نتيجة المعركة، وعاد بعد ذلك إلى وصف أحداثها.

وعدم التسلسل في وصف أحداث الوقائع الحربية نجده عند الكثيرين من شعراء الحروب الصليبية. وقد يعود انصراف الشعراء عن وصف تسلسل أحداث المعارك إلى اهتمامهم بإعلان أنبائها ونتيجتها على الناس، الذين كانوا يتلهفون لسماع أخبار الانتصارات، وينتظرون ذلك بفارغ الصبر. فكان تركيزهم على نتيجة المعركة دون تركيز على التفاصيل الجزئية الخاصة بتلك المعركة.

وبرغم هذه الملاحظات فإنه كان لقصائد الشهاب محمود الجهادية دور كبير في مواكبة أحداث الغزوين الصليبي والمغولي، وتصوير تلك الأحداث في وقت قلّت فيه وسائل الإعلام. وقصائده – في وصف المعارك – تدل على مقدرته في رسم لوحات رائعة مشرقة لجيوش المسلمين، التي تهاوت تحت وقع سنابك خيلها، وقذائف مجانيقها حصون وقلاع صليبية منيعة وحصينة. " ولو جُمعت قصائده إلى بعضها لتكوّن منها ملحمة رائعة تصف جهود المسلمين في عهد المماليك في سبيل تحرير البلاد من قبضة الغزاة الصليبيين"[1].

ولا نطالب الشهاب محمود أن يقول أبدع مما قاله، فيكفيه – كما ذكر د. شوقي ضيف – " أنه الشاعر الشامي الوحيد الذي صوّر حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويراً بديعاً مما جعل ابن تغري بردي يقتصر في أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين"[2].

---

(١) الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين: ٢/ ص١٩٣.

(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الشام): ص١٥٨.

وقد لاحظ أستاذنا الدكتور محمود إبراهيم غياب التحديد الدقيق للواقعة، والتفاصيل المتعلقة بها في شعر ابن القيسراني، الذي واكب وقائع الحروب الصليبية، وعلّل ذلك بعدة احتمالات، نرى أنها تنطبق على الشعر الجهادي عند الشهاب محمود، وتصلح لأن تكون تعليلاً للملاحظات التي أبديناها، حول وصف المعارك عنده، وملخّص تلك الاحتمالات كما أوردها[1]:

١. إن بعض شعراء المواجهة لم يشهدوا الوقائع الحربية بأنفسهم، ولم يشاركوا فيها، وهذا يعني أنّ مادة القصيدة الحربية عندهم كانت تستمد من السماع والتصور لا من المشاهدة الحقيقية للمعارك. ولا يوجد بين أيدينا نص يشير إلى أن الشهاب محمود قد شهد بنفسه أيّاً من الوقائع التي وصفها.

٢. إن شعراء المواجهة قد اعتمدوا في تصويرهم للمعارك على التراث الشعري الحماسي الموروث، ولا سيّما شعر أبي تمام والمتنبي. ومثل هذه النزعة الاتباعية ترتّب عليها صور أدبية مقلدة، أو منقولة، تنقصها الأصالة، والواقعية معاً. وقد فصّلنا القول في انجذاب الشهاب محمود في شعره الجهادي إلى التراث الشعري الحماسي عند أبي تمام والمتنبي، وغيرهما، عن طريق المعارضة لأشعارهم أو محاكاتها[2].

٣. إن شعراء المواجهة – في قصائدهم الحربية–، نظروا إلى شعرهم باعتباره شعر مديح أوّلاً، بما تقتضيه تلك النظرة من تركيز على فضائل الممدوح. ولا يخفى ما يترتب على ذلك من تسليط الأضواء على شخص الممدوح بدلاً من إعطاء وصف شامل

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني: ص١٣٦ – ١٣٨.

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا البحث.

متكامل للحادثة نفسها. والحديث عن البطل في قصائد الشهاب محمود الجهادية يحتل مكانة الصدارة، وتشكل أبيات المديح الجزء الأكبر منها، كما أن المصادر كانت تورد تلك القصائد مبدوءة بعبارة: " قال يمدح السلطان..."[1]. وإن كنّا لا نجد فيها أية إشارة إلى تكسّب، أو طلب عطاء.

٤. إنّ تيار الصنعة اللفظية الذي سيطر على أدب العصر قد صرف بعض الشعراء إلى الزخارف اللفظية، مما جعلهم يصرفون جهدهم في تلمس الصنعة، بدلاً من أن يصرفوه إلى النفاذ العميق في تجربتهم، ومن ثم طبعها بطابع الأصالة والعمق. والشهاب محمود ممن عنوا بالصنعة اللفظية نظرياً وتطبيقياً، فقد استحوذ الحديث عن البديع وفنونه المختلفة على الجزء الأكبر من كتابه " حسن التوسل"، كما أنه حشد ألواناً من البديع في قصائده الجهادية[2].

---

(١) انظر على سبيل المثال: فوات الوفيات: ١/ ٤١٠، ٤١٣، وذيل مرآة الزمان: ٤/ ص٢٥٦، والوافي بالوفيات: ٢٤/ ص٣٨٧.

(٢) انظر حسن التوسل في صناعة الترسل: ص١٤ - ٩٥، وانظر أيضاً الفصل الثالث من بحثنا هذا.

صـــورة العـــدو:

١. صورة الصليبيين:

كـان الغـزو الـصليبي الـذي بدأتـه أوروبـا المـسيحية في القـرون الوسـطى ضـد العـرب والمـسلمين، في مـصر والـشام غـزواً عـسكرياً، وصراعـاً دينيـاً، إذ اتخـذ الغـزاة مـن الـصليب شـعاراً لهـم عـلى الـصدور وفـوق الـرؤوس. وكـان مـن أهـدافهم الرئيـسة التـي ركـزوا عليهـا احـتلال مدينـة القـدس، التـي سـقطت في أيـديهم خـلال حملـتهم الأولى سـنة ٤٩٢هـ، حيـث أقـاموا الـصليب الـذهبي الكبـير في أعـلى قبـة الصخرة[1]، مما طبع الغزو الصليبي بطابع ديني.

ولذا فقد كان أوّل مظاهر الهجوم، الذي شنّه شعراء الجهاد والمقاومة هـو رمـي الصليبيين بالكفر، والشرك، وظلّ ذلك يتردد في الشعر من بداية الحروب الصليبية حتى نهايتها. كما أنهم –كما ذكرنا– عدّوا قتال الغزاة الصليبيين جهاداً في سبيل الله.

ونجد الشهاب محمود في شعره الجهادي يذكر الصليبيين باسم (الفرنج)، وينعتهم بالكفر والشرك، وبالإضافة إلى الأبيات التي ذكرناها، فإنه يقول :

الـــشرك أجـــلى وانجـــلى ظلماتـــه ... والـــدين قـــرّ وأشرقـــت قـــسماته

والنـــصر ألـــوت بـــالفرنج رياحـــه ... مـــن بعـــدما فتكـــت بهـــم نـــسماته

وأخذ الشعراء على الغزاة الصليبيين عبادتهم للصليب من دون الله؛ لأنهم يعتقدون أن سيدنا عيسى قد صلب، ودفن بعد الـصلب، بينـما يـرى المـسلمون أن المـسيح عبـد الله ورسوله، وأنه لم يصلب ولم يقتل، وإنما رفعه الله إلى السماء. وشن الـشعراء عـلى الـصليب حملة شديدة، باعتباره شعار الغزاة ومحط تقديسهم وتمجيدهم، يقول الشهاب محمود:

---

(١) مفرج الكروب: ٢/ ص٢١٧.

الحمـــد لله ذلّـــت دولـــة الــصّلب وعـزّ بـالتُّرْكِ ديـن المصطفى العـربي

وأشار الشعراء أيضاً إلى ادّعاء الغزاة الصليبيين أن سيدنا عيسى ابن الله، والله تعالى هو الأب، وهذا مخالف لعقيدة التوحيد القائلة بأن الله تعالى لا يوصف بالأبوة أو النبوة لأحد " لم يلد ولم يولد". وها هو الشهاب محمود يرد على تلك الدعوى مستنكراً أن يوصف الله تعالى بالأبوة لسيدنا عيسى:

ليـثٌ أبـى أن يـرد الوجـه عـن أمـم يـدعون ربّ الـورى سـبحانه بـأب

ويشير الشهاب محمود على عقيدة الصليبيين في التثليث (الأب، والابن، والروح القدس) فيقول في موقعة طرابلس:

وفي هُلكهـــم يـــوم الثلاثـــا بـــشارة إلى أنّ في الـــدارين تثليـــثهم خُـــسْرُ

وهم عبّاد عيسى، يقول الشهاب محمود مخاطباً الأشرف خليلاً:

أغــضَبْتَ عُبّــادَ عيــسى إذ أبـدتَهُمُ لله أيُّ رِضــــاً في ذلـــكَ الغَـــضَبِ

ويبرئ الشهاب محمود عيسى عليه السلام من ادعاءاتهم، ولذا فقد سُرّ ورضي من انتصار المسلمين على الصليبيين في وقعة الروم، يقول مخاطباً الأشرف خليلاً:

وبــشراك أَرْضَــيْتَ المـسيحَ وأَحمــدا وإنْ غَـضِبَ اليعفـور مـن ذاك والكفـرُ

ويشير الشهاب محمود إلى شعائر الصليبيين فهم يعلقون الصّور والصّلبان بدل الآيات والسّور، فيقول مخاطباً قلاوون بعد فتح حصن المرقب:

جدّدْتَ ربْع الهوى حتى غَدَت بدلاً فيــه مــن الــصُّور المعبــودة الــسُّوَرُ

ووصف الشعراء عيون الصليبيين الزّرق، يقول الشهاب محمود:

وغاص زرْقُ القنا في زُرْق أعيُنهم ... كأنها شطنٌ تهوي إلى قُلُبِ

والمنهزمون من الغزاة الصليبيين ترتبط هزيمتهم – كما يذكر الشهاب محمود – بمكرهم، وبموالاتهم للمغول، الذين خذلوهم وتركوهم في ساحة القتال وحدهم، ويرى أنهم جميعاً كفّار، والكفر ملّة واحدة، يقول في فتح قلعة الروم:

قَصَدْت حِمىً من قلعة الروم لم يُتح ... لغيرك إذ غرّتهم المغْل فاغتروا

ووَالَوْهُمُ سرّا ليخفوا أذاهم ... وفي آخر الأمر استوى السِرُّ والجهرُ

وما المغلُ أكفاء فكيف سواهم ... ولكنّه غَزْوٌ وكلّهم كُفْرُ

فلاذوا بذيل العفو منك فلم تُجب ... وجاءهم لو لم يشبْ قصدهم مكرُ

وما كره المغْل اشتغالك عنهم ... بها عندما فرّوا ولكنهم سُرّوا

ولما كان الغزاة الصليبيون كفرة مشركين، فهم أنجاس دنّسوا المقدسات، التي يكون تطهيرها بإراقة دمائهم فوق أرضها، يقول الشهاب محمود:

وخُلّقتْ بالدم الأسوار فانْفَغَمتْ ... طيباً ولولا دماء الخبث لم تطب

***

وَنُمِي إلى صور الحديث ببحرهم ... إذ خُلّقت بدمائهم صفحاته

ويقول:

تخَلّق وجهُ السّور منهم كأنما ... غَدَتْ وعليها بالذي فَعَلَتْ نَذْرُ

ولاذوا بباب البحر منك فما نجا ... إليه سوى من جرّه من دمٍ نَهْرُ

ويختلف الغزو الصليبي عن الغزو المغولي في أن الأول كان غزواً استيطانياً، بينما كان المغول يأتون على شكل هجمات وغارات يقتلون وينهبون ثم يعودون من حيث أتوا. لذلك صوّر شعراء الجهاد والمقاومة الحصون والقلاع الصليبية في غاية المناعة والحصانة، وتفننوا في وصف أبراج القلاع ليدلّلوا على شجاعة الجيش المسلم الذي اقتحمها[1].

وإذا كان الشعراء قد تغنوا بانتصارات المسلمين، فقد وصفوا كذلك الهزائم التي حلّت بالصليبيين، وأظهروا الشماتة بهزيمتهم، وهذا يبدو في مطلع قصيدة الشهاب محمود من أبيات سبق ذكرها:

الحمد لله ذلّت دولة الصّلب ... وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

وقوله – في القصيدة ذاتها – بلغة ملؤها الثقة بالنفس، تدفع إلى الازدراء بالعدو، وتعبر عن الشماتة باندحار الشرك، وهزيمة الكفر المتمثلة بالصليبيين:

ما بَعد عكا وقد هُدّت قواعدها ... في البحر للشرك عند البرّ من أربِ
لم يبق بعدها للكفر إذ خربتْ ... في البرّ والبحر ما ينجي سوى الهرب

ووصف الشعراء قتلى الصليبيين وأسراهم وسباياهم، فصوّروا القتلى وقد تلطخوا بدمائهم، ففي قتلى طرابلس قال الشهاب محمود:

لقيتَهمُ صُفْر الوجوه فما أتى ... لها الليل إلاّ وهي من دَمِهمْ حُمر
ولاذوا ببابِ البحرِ مِنكَ فَما نَجا ... إليه سوى مَنْ جَرّهُ من دمٍ نهر
ولم ينجُ إلاّ من يُجَبّرُ قومه ... ليدروا وإلاّ مَنْ تَغَمّدهُ الأسرُ

(١) انظر تصوير المعارك في بحثنا هذا.

فلله كم بيضٍ وسُمْرٍ كواعبٍ ... على رَغْمهم قد حارتْ البيضُ والسُّمرُ
وكم فارسٍ من قيدهِ ودمائه ... مَرَاكِبُه دُهْمٌ وألوانُها شُقْرُ

ولا نجد في شعر الشهاب محمود وصفاً لعادات الصليبيين، وقصورهم، ونسائهم، ويبدو أن منصبه الرسمي في ديوان الإنشاء حال دون أن يكون له احتكاك مباشر بالصليبيين المقيمين في الأرض الإسلامية.

٢. صورة المغول:

واكب شعر الشهاب محمود أحداث الغزو المغولي، وسجّل أصداءه. وهو يطلق على المغول اسم (المغل)، يقول:

وعادَ والنّصرُ معقودٌ برايته ... والمغل ما بين أيدي خيله خَوَلُ

ويقول من قصيدة أخرى:

قَصَدْت حميً من قلعة الروم لم يُتَحْ ... لغيرك إذ غرّتهم المغْلُ فاغتروا
وما كَرِهَ المغلُ اشتغالك عنهم ... بها عندما فرّوا ولكنهم سُرّوا

ويطلق عليهم اسم (التتار) أيضاً، فيقول:

وأيضاً لإرغام التتار الذي بهم ... تمسكهم إذ قهرهم لهمُ قهرُ
لهُمْ وَيْلهمْ إنّ التتار الذي رجوا ... إعانتهم لم يحوها ربّهم فقرُ

ويتجلى الصراع بين المسلمين والمغول في الشعر في صورة جهاد ديني بين الإيمان والكفر، فالمغول – وإن كان بعضهم أعلن إسلامه – إلا أنهم جاءوا يحاربون دين الله. والصراع معهم يتجاوز الصراع العسكري إلى صراع العقيدة والدين. فهم كفّار، وانتصار السلطان الظاهر عليهم، إنما هو انتصار للإسلام على الكفر:

فيا ملك الإسلام يا من بنصره ... على الكفر أيّام الزمان مواسم

مليك لـه بالـدين في كـلّ سـاعة ... بـشائر للكفّـار منهـا مآتـم

وقتالهم بتأييد من الله تعالى، والنصر عليهم ثأر للدين:

سِرْ حيث شئت لك المهيمنُ جارُ ... واحكمْ فطوعُ مُرادك الأقدار

لم يبق للدين الـذي أظهرْته ... يا ركنه عند الأعادي ثـارُ

وارتبط ذكر جيش المغول في الأذهان بكثرة العدد، فهو من الكثرة بحيث يضيق عنه الفضاء والسبل:

سَلْ يومَ حمصَ جيوش المغل عنه وقد ... ضاق الفضاء بهم واستُدّت السُّبُل

ويشبههم – في كثرتهم – بالبحر، فيقول:

وصدّهم وهم كالبحر إذ صُدِموا ... ببأسه وحمى الإسلام إذ حَمَلوا

* * * *

وكانوا كموجِ البَحْرِ لا حَدَّ يحتوي ... عليهم ولا يأتي على عدِّهِمْ حَصْرُ

ويصف الشهاب محمود ذلك التحالف الغريب الذي كان يؤلف في جيشهم بين أخلاط متباينة في المعتقد والهدف، فقد كان فيه بالإضافة إلى المغول كرج وأرمن وعرب وعجم وترك، جمعت بينهم الأطماع، ووحدّهم هدف مشترك هو اغتصاب الأرض الإسلامية وسلب خيراتها. كما يظهر في قوله يصف جيشهم، الذي حاصر الرحبة سنة ٧١٢هـ:

أتوا كالدّبا ما بين كَرْج وأرمن ... ومُغل وأتراك وعُرب وأعجام

وقد استعار الشاعر صورة (الدّبا)، وهو الجراد؛ ليدل على كثرة الجيش من جهة، وعلى أفعاله، التي تشبه أفعال الجراد في التخريب والإفساد.

والزراية بالمغول، والاستهانة بأمرهم، بعد أن فقدوا تفوقهم، وأخذوا يذوقون طعم الهزائم، يصوّرها الشهاب محمود، مع شيء من المبالغة، فيقول في هزيمتهم أمام السلطان قلاوون، ويصف أسراهم وقتلاهم:

فمــزّقتهم سُطـــاه ذا يـــسير وذا ... عـانٍ أسـيرٌ وذا في الـترب مُنْجَـدلُ
كـأنّ هـاربهم و الخـوفُ يطلبـه ... يبـدو لديـه مِثـالٌ منـه أو مثـل
فـإن تنبّـه يومـاً راعـه وإذا ... أغفـى جَلَتْـه عليـه في الكـرى المقـلُ

ويسخر من قتلاهم على طريقة المتنبي، عندما جعلهم يلثمون الأسنة، ويصافحون السيوف، ويعانقون الرماح:

فـأهووا إلى لـثم الأسـنة في الـوغى ... كـأنهم العـشّاق و هـي المبـاسم
وصـافحت البـيضَ الـصفاح رقـابهم ... وعانقـت الـسمرَ القـدودُ النـواعم

ويسخر من قادة المغول المنهزمين، الذين أسروا أو قتلوا، وكيف علقت رؤوسهم بالرماح التي اتخذت منها تمائم، فيقول:

فكـمْ حـاكمٍ مـنهم عـلى ألـف دارع ... غـدا حـاسراً والـرمحُ في فيـه حـاكم
وكـمْ ملـكٍ مـنهم رأى وهـو موثَـقٌ ... خـزائن مـا تحويـه وهـي غنـائم
توسوست الـسّمر الـدقاق فأصبحت ... لهـا مـن رؤوس الـدارعين تمـائم

ويتحدث عمّا أصابهم من ذلّ وهوان عندما حاصروا مدينة الرحبة سنة ٧١٢هـ، ثم فرّوا وتركوها هاربين عندما تهيأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون لمهاجمتهم فقال:

وفي الرحبـة الغـرّاء أَيّـةُ آيـة ... بهـا لأنـوف الكفـر أعظـم إرغـام

ولا نجد الشهاب محمود – فيما بين أيدينا من شعره- يصوّر عادات المغول وأخلاقهم وتقاليدهم وتفاصيل حياتهم؛ لأن طبيعة عمله في ديوان الإنشاء لم تمكنه من الاتصال المباشر بهم، كما أن طبيعة الغزو المغولي، الذي تمثّل بالغزوات المتكررة، التي لم يكن يعقبها استيطان، وبخاصة في بلاد الشام جعل وجود ذلك الشعر أمراً غير ميسور.

شعر المديح النبوي في موكب الجهاد:

شاع شعر المديح النبوي في عصر الحروب الصليبية، ولا يقع الباحث في شعر هذا العصر على ديوان من دواوين الشعر المنسوبة إلى أحد شعرائه، حتى يلقاه أوّل ما يلقاه قصيدة أو أكثر في مدح الرسول (ﷺ). بل لقد وضع بعض الشعراء كالشهاب محمود، الذي قضى فترة طويلة في عصر الحروب الصليبية، ديواناً كاملاً اقتصر فيه على المديح النبوي، أسماه – كما أسلفنا – " أسنى المنائح في أسنى المدائح"[1]، ويرجح أن ذلك الديوان نظم في العصر الصليبي[2].

وليست دراسة شعر المديح النبوي عند الشهاب محمود موضع اهتمامنا في هذا المقام، فذلك يحتاج إلى دراسة مطوّلة تتناول قصائده في المديح النبوي من حيث: نصوصها، وموضوعاتها، وخصائصها الفنية. ولكن الذي يعنينا هو هل كان شعر المديح النبوي عند الشهاب محمود مقصوداً لذاته؟ أم أنّه كان مواكباً لشعر الجهاد والمقاومة في ذلك العصر؟

وللإجابة عن ذلك نقول: إن موضوعات شعر المديح النبوي – عند الشهاب محمود – لا تختلف عنها عند غيره من شعراء هذا اللون، فهي حياة الرسول (ﷺ)، ومعجزاته، وجهاده، والحديث عن الهجرة النبوية، والإسراء والمعراج، وغير ذلك مما يتعلق بسيرته العطرة. ولكننا نجد – في قصائد المديح النبوي عنده– تركيزاً واضحاً على جهاد الرسول (ﷺ)، والصحابة رضوان الله عليهم وبيعهم نفوسهم في سبيل الله، ولذلك فقد كان النصر حليفهم، لأن الله ناصرهم. وها هو يذكر من صفات أولئك الصحابة ما يؤكد هذه الصفة، فيقول في إحدى قصائده:

---

(١) انظر الفصل الأول من دراستنا هذه.

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ص٥١٧.

يـصونون ديـنهم في ابتـذال النـ (م) ـفس في الله للسيوف الحداد
فأقاموا الـدينَ الحنيـفَ لديـه بـالعوالي عـلى أصـحّ عِمـادِ
قـسموا دهـرهم فبين اجتهـادٍ لم يزالـوا في ليلهـم وجهـاد[1]

ويفصّل القول في قصائد أخرى في صفات الجنة ومن يستحقها، فيقول[2]:

جنـات عَـدْنٍ لا يُلَقّـى نَـشْـ (م) ـرَهـا إلاّ الـصّبورْ
خـدّامهـم و أنيـسهم فيهـن ولـدان و حـورْ
نـصروه واتبعـوا هـداه وللعـدا عنهـم نفـورْ
عـادوا عـداه بأسرهـم فيـه وَهُـمْ عـددٌ يـسيرْ
بذلـوا الوجـوه فكرّمـت و تبلجـت منهـا الثغـور
وَبَـدا بهـا نـور القبـول ومـا كـذاك النـور نـور
ونحـورهم هـدفُ الـسِّهام فحبّـذا تلـكَ النحـورْ
هـم في ثباتهـم الجبـال وفـي نواهـم البحـور
سَـلْ يـومَ بـدرٍ عنهـم وعـن العـدا فهـو الخبيـر
إذْ أقبلـتْ عليـا قـريش وذلـك الجَـمُّ الغفيـر
فـاستقبلوهـم بالـسيو (م) ف و لم يكـن فيهـم فتـور
رامـوا الـشهادة دونـه هـذا هـو الفـوز الكبيـر
خطبـوا الجنـان فأذعنـت إذ مـن نفوسهـم المهـور
وتـزخرفَـتْ للقائهـم منهـا الأسِرَّةُ و القُـصور

(١) المجموعة النبهانية: ٢/ ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ص١٦١.



فأمدّهم في يومهم	بالنصر ربّهم القدير
وملائك تمّت بها	في الحرب بينهم الأمور
فغدت قريش جلّهم	إمّا قتيل أو أسير
من كان ناصره الإله	فحسبه نعم النصير

فهذه أبيات قليلة من كثير تصوّر جهاد هؤلاء الصحابة في سبيل نصرة هذا الدين، وأن الدين قد انتصر بجهادهم، وكأن الشهاب محمود يوجه القول إلى أبناء أمته في عصره وفي كل عصر، فيقول: إن أردتم لهذا الدين أن ينتصر، ويعلو شأنه، وإن أردتم أن تنالوا المكانة التي نالها هؤلاء، فعليكم بنصرة هذا الدين، وبذلك تستحقون هذا المصير الذي استحقوه.

إنّ شعر المديح النبوي الذي ازدهر إبّان الغزوين الصليبي والمغولي، لم يكن يراد به – في الأغلب – المديح النبوي بذاته، وإنما كان يراد به تصوير جهاد النبي (ﷺ). ووضعه نصب أعين المسلمين،ليكون قدوة تستنهض عزائمهم، وتستثير عواطفهم، وتحفز هممهم، ليهبّوا للذود عن دينهم، ويحاربوا الكفار والمشركين من الصليبيين والمغول لاسترداد مقدساتهم، وتطهيرها من دنسهم.

فهذه المدائح الكثيرة التي نظمت في هذا العصر " لم يكن يراد بها المديح النبوي من حيث هو، وإنما كان يراد بها وضع السيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاده لمشركي الجزيرة بين أيدي المسلمين ليستشعروها في جهادهم لحملة الصليب والتتار، حميّة للدين الحنيف وحماه، وحميّة لصاحبه وهداه، ومعنى ذلك أنها لم تكن مديحاً بالمعنى المألوف، إنما استنفاراً للمسلمين في كل مكان، ليستخلصوا ديار الإسلام من المحتلين الآثمين، وليمزقوا جموعهم شر ممزق"[(١)].

---

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: ص١٧٨.

وهكذا فإن شعر المديح النبوي – عند الشهاب محمود- بهذا التركيز، وفي ظل الظروف التي نظم فيها، لا بدّ أنه كان يقوم بمهمة إعلامية تهدف إلى إثارة العزائم، وتحريك الهمم لمحاربة الغزاة. ولو كان الشهاب محمود قد نظم شعره في المديح النبوي مجاراة لشعراء عصره في هذا اللون من الشعر، ولإظهار مقدرته في هذا المجال، لاكتفى بنظم قصيدة أو مجموعة من القصائد. أمّا أن يخصص ديواناً في آلاف الأبيات لشعر المديح النبوي، فهذا يعني أن هذا الشعر لم يكن ترفاً، أو نوعاً من النزهات الروحية، أو التجليات الصوفية، وإنما كان ضرورة اقتضتها ظروف العصر. فقصائده في المديح النبوي كانت مواكبة لشعره الجهادي، بل هي ضَرْبٌ من ذلك الشعر.

وفي شعر المديح النبوي في عصر الشهاب محمود، يقول د. شوقي ضيف: " إنه ليس شعر موالد وحلقات دينية، كما قد يتبادر، إنما هو شعر جهاد؛ لإلهاب عواطف الشعب في حرب أعداء الإسلام، وسحقهم سحقاً، لذلك تجرّدت له جماعات كانت تتغنى به على المزمار وفي حلقات الذكر، استنهاضاً للمسلمين، كي يذودوا بكل قواهم عن حمى الإسلام وحياضه "[1].

---

(١) البحث الأدبي: ص٢٤٤.



غياب شعر رثاء الأبطال ورثاء المدن:

من الظواهر التي تسترعي النظر في دراسة أصداء الغزوين: الصليبي والمغولي في شعر الشهاب محمود، تلك هي خلو هذا الشعر من رثاء الأبطال والقادة، الذين عمل لديهم الشهاب محمود في ديوان الإنشاء، ومدحهم، ووصف معاركهم، وأشاد ببطولاتهم.

والتساؤل هو: ألم يستشهد في تلك المعارك، التي خلّدها الشهاب محمود في شعره قادة وجنود؟ ألم يكن واحد من ممدوحيه حريّاً بمرثية تخلد بطولته؟ وهؤلاء السلاطين من الظاهر بيبرس إلى الناصر محمد بن قلاوون، ونوّابهم ممن اتصل بهم الشهاب محمود ومدحهم، وهلّل لانتصاراتهم وكبّر، ألا يوجد فيهم من هو جدير بأبيات في الرثاء؟

إن المديح قد لا يدل على صدق في العاطفة، كالذي يدل عليه الرثاء، الذي يكون مبعثه الحزن الخالص والإعجاب الخالص، بينما قد تسوق إلى المديح رغبة أو رهبة في بعض الأحيان. وقد يكون الشهاب محمود قد نظم شعراً في رثاء الأبطال من ممدوحيه، ولكن لم يصل هذا الشعر إلينا، ولا سيما أننا رجّحنا أنّ ما بين أيدينا من شعره لا يمثّل جميع ما نظمه من شعر. ولكننا نستبعد هذا الافتراض؛ لأنه وصل إلينا – فيما وصل من شعره – كمٌّ كثير مما نظمه في رثاء أقرانه العلماء ومشايخه الفضلاء، من أمثال ابن العديم (ت ٦٦٦هـ)، والقاضي ابن صَصْرى، ومجد الدين بن الظهير، وشهاب الدين بن فضل الله العمري، وشمس الدين بن أبي عمر المقدسي، وغيرهم ممن رثاهم بقصائد مطولة، تفيض حزناً وأسىً[1].

أمّا قصيدته في رثاء السلطان بن قلاوون، والتي وصلت إلينا منها هذه الأبيات:

---

(١) انظر فوات الوفيات: ١/ ص١٢٦، ص١٥٩، ٢/ ص٢٩٢، ص٤٢٢، ٣/ ص٣٠١، وانظر أيضاً: عيون التواريخ: ٢١/ ص١٧٤، ص١٨٥، ص٢٨٥.

مَلِكٌ مضى لسبيله، و سبيله ... في نصرة الإسلام حُكمٌ يُقتفى

المالك المنصور أكرم من جفا ... طيب الرقاد إلى الجهاد وأوجفا

سَلْ يوم حمصَ عن الألوف وقد سطا ... في (...) هل بعد ذاك تألفا

وانظر تجد تسعين ألفاً منهم ... ذهبوا كما حكمت صوارمه جفا

وغدا وطاءً للورى فلكمْ ترى ... من حافرٍ قد داس خدّاً مُترفا

والمرقب العالي الذي سامى السما ... فغدا على نهر المجرّة مشرفا

وكذا طرابلس التي لم يرجها ... ملك سواه إذا تنبّه أو غفا

ولَكَمْ أباد عِدىً و كَمْ أبدى يداً ... وندىً و جدّد رسم مكرمة عفا

وأقال معتذراً وأغنى راجياً ... وأعان ملتجئاً و سامح مسرفا

طوبى له حازت يداه وقد مضى ... ما أقرضا في طاعة أو أسلفا

فتلقّت الأملاك مقدم روحه ... بأجلّ مما كان فيه وأشرفا[1]

فإنها مرثية شاحبة باهتة، لا تعكس إحساساً صادقاً، ولا تثير في سامعيها حزناً، ولا تستدر دمعاً، بقدر ما تشعرنا بأن ناظمها يؤدي عملاً رسمياً وكأنه في ديوان الإنشاء يؤدي المطلوب منه قوله.

وربما يدفعنا خلو شعر الشهاب محمود من رثاء الأبطال والقادة، الذين اتصل بهم، ونال عطاياهم إلى تساؤل عن شخصية الشاعر، ومدى ارتباطها بأولئك الممدوحين؟ وهل كان المديح عنده، لا يعدو أن يكون أداء مهمة رسمية، تماماً كما هو حال عمله في

(١) انظر القصيدة في الفصل الرابع من دراستنا هذه.

ديوان الإنشاء؟ وهل إذا انتهت حياة ممدوحيه بالقتل، أو بالموت، انتهت مهمته الرسمية إزاءهم؟ وانقطعت صلته بهم مؤملاً ظهور ممدوحين آخرين؟

ويبقى هذا الموضوع أمراً يصعب الجزم فيه بقول، ولا سيّما أن الأخذ بهذا الافتراض يقوم على طعن في شخصية الشاعر وصدق مواقفه، بالرغم من أن قصائده التي نظمها في مديح أولئك الأبطال وتمجيدهم تكشف عن إحساس قوي بخطر الغزوين الصليبي والمغولي، وتدل على تقدير كبير لدور أولئك الأبطال، الذين وقفوا سداً منيعاً في مواجهة الأخطار. يضاف إلى ذلك أننا لا نجد في شعره ما يشير إلى أنّه تعرّض تصريحاً أو تلميحاً لطلب عطاء،فهو لا يطمع من مديحه بكسب مادي، فقد بلغ من مراتبه الدنيوية غاية ما يمكن أن يصل إليه، وكان في شعره الجهادي إنساناً مسلماً يعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيسه وأحاسيس المسلمين عامة تجاه أولئك القادة الأبطال. وقد ارتبطت حياته لمدة طويلة بمراكز المقاومة الرئيسية للصليبيين والمغول في الشام ومصر، وبأعظم من قاوم الغزوين من رجال الإسلام في تلك الفترة. وليس من المناسب إذن أن نعد الشاعر من بين طائفة الشعراء المدّاحين، كما رأى د. شوقي ضيف[1]. فهذه القصائد – كما تبيّن لنا – إنما هي قصائد جهادية حماسية تتضمن كل معاني قصيدة الجهاد، ومن ضمنها مدح البطل أو القائد المنتصر.

أمّا رثاء المدن، الذي كان من الموضوعات التي شاعت وانتشرت في عصر الشهاب محمود فإن شعره يخلو منه تماماً. ومن المدن التي تعرّضت لأذى المغول ونزلت بها نكبتهم مدينة حلب، مسقط رأس الشاعر، فقد غزتها جيوشهم سنة ٦٥٨هـ، وهي السنة التي وقعت فيها معركة عين جالوت، فقد فتحوا حلب بالأمان، ثم غدروا بأهلها، وقتلوا

---

(١) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الشام): ص١٥٨- ١٦١.

منهم خلقاً كثيراً. واستولى جيش المغول في السنة نفسها على مدينة دمشق المدينة التي نشأ فيها الشهاب محمود، وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً. ونحن لا نجد له شعراً في رثاء أيّ من هاتين المدينتين، كما نجد لغيره من الشعراء، ولكننا نرجح أنه في تلك السن المبكرة، لم يكن قد بدأ في نظم الشعر، أو أنّ محاولاته الشعرية حينذاك لم تكن قد بلغت مستوى يستحق الذيوع والنشر.

ولكن المغول عادوا واحتلوا حلب ثانية سنة ٦٧٩هـ[١]؛ وكان الشهاب محمود في ذلك الوقت يشغل منصباً مرموقاً في ديوان الإنشاء بدمشق، وكانت شاعريته في أوج نضوجها وتدفقها، يدلنا على ذلك تلك القصائد الطنّانة، التي مدح بها الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون. وهاجم المغول مدينة حلب مرّة أخرى، ودخلوها سنة ٦٨٢هـ، فقتلوا ونهبوا وسبوا، وأحرقوا الجامع والمدارس ودار السلطنة، ودور الأمراء، وأقاموا بها يومين ينشرون الفساد، ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه[٢]. ولكننا لا نجد للشهاب محمود شعراً في رثاء مدينة حلب، ووصف ما حلّ بها من تدمير وتخريب.

وفي سنة ٦٩٩هـ غزا المغول بلاد الشام، ودخلوا دمشق، وعاثوا فيها فساداً وتخريباً[٣]، وكان الشهاب محمود يعمل حينذاك في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ودمشق – كما أسلفنا – هي المدينة التي نشأ فيها الشاعر، وتلقّى العلم على علمائها، وعمل بديوان الإنشاء فيها، فهي مدينة المنشأ، والتكوين الثقافي، والعمل الوظيفي بالنسبة للشهاب محمود، وبرغم ذلك فلا نجد له شعراً في رثائها، ووصف ما أصابها، على الرغم من أن هناك قصائد كثيرة قد قيلت في رثاء دمشق بعد سقوطها في أيدي التتار.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية: ١٣/ ص٢٩٢.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١ ق٣/ ص٧٠٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية: ١٤/ ص٩٩.

ولا ندري إن كان للشهاب محمود شعر في رثاء المدن، ولكنه لم يصل إلينا، أم أن البكاء ورثاء المدن إنما هو سلاح العاجز، الذي يمثل - في نظره - نوعاً من الضعف والاستكانة، وتصويراً للهزيمة، وتثبيطاً للعزيمة. وهو - فيما وصل إلينا من شعره - شاعر تمجيد البطولات، وتخليد الانتصارات.

ونحن نميل إلى الافتراض الثاني، ذلك أننا لا نجد - فيما وصل إلينا من شعره - أبياتاً تصوّر أيّة هزيمة لحقت بالمسلمين أمام جموع الصليبيين أو المغول. وكأنه كان يقصر شعره الجهادي على تمجيد الأبطال، وتخليد الانتصارات، وتعظيم الفتوح، وغير ذلك مما يدخل في إطار الإعلام الهادف، الذي كان يمارسه الشهاب محمود بحكم عمله الوظيفي بديوان الإنشاء. فبدلاً من عرض صور المآسي والكوارث في رثاء المدن نجد في أشعاره صورة التفاؤل بالنصر، حيث يقول:

سِرْ حيثُ شِئْتَ لكَ المهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطوعُ مُرادِكَ الأقدارُ

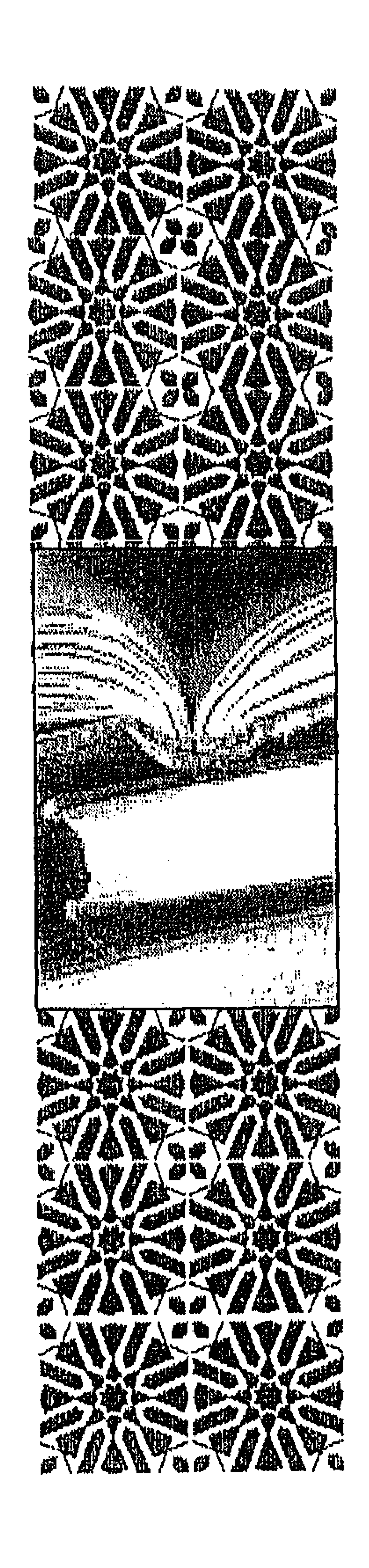
ويقول:

فانهضْ إلى الأرضِ فالدنيا بأجمعها ... مدّتْ إليكَ نواصيها بلا نصبِ
مَنْ كان مبدؤه عكا وصور معاً ... فالصينُ أدنى إلى كفّيه من حَلَبِ

وإذا كنا لم نخرج بتعليل حاسم لغياب رثاء الأبطال، ورثاء المدن في شعر الشهاب محمود، فقد يكون في واحد من تلك الافتراضات التي ذكرناها،أو في عدد منها شيءٌ من الصواب.

الفصل الثالث

ظواهر فنيّـــــــة في شعْرِه الجِهاديّ



* بناء القصيدة
* الانجذاب إلى التراث (الاتباعية)
  - المعارضات
  - التأثر بالشعراء السابقين
  - التضمين
  - حسن الاتّباع والتوليد
  - الاقتباس
* الشغف بالبديع

يقتصر تقويمنا الفني لشعر الشهاب محمود على ذلك النوع من الشعر، الذي تصدّى لأحداث الغزوين: الصليبي والمغولي. أي أننا نلقي الضوء على شعر التزم بالدفاع عن وجود الأمة الإسلامية ومقدساتها في النصف الثاني من القرن السادس الهجري حتى الربع الأول من القرن السابع، أي ما يقارب قرناً من الزمان.

ويترجح لدينا أن شيئاً كثيراً من شعر الشهاب محمود الجهادي لم يصل إلينا، ويساعدنا في ترجيحنا ما يلي:

١. ذكر مترجمو الشهاب محمود أنه كان – كما أسلفنا- من الشعراء المكثرين، وكان كذلك من المعمّرين. وهذا الكم اليسير الذي وصل إلينا من شعره الجهادي، لا يتناسب مع كونه مكثراً، ولا يمثل تلك السنوات الطويلة التي عاش فيها، والأحداث الجسام الكثيرة التي عاصرها.

٢. عُرِف الشهاب محمود في شعره الجهادي عند القدماء بقصائده المطوّلة، ولكننا نجد – فيما وصل إلينا من شعره في هذا الموضوع- أبياتاً مفردة، ومقطوعات مبتورة، لا يتجاوز عدد أبياتها أصابع اليد الواحدة. ونحن نرجح أن هذه الأبيات والمقطوعات إنما هي أجزاء من قصائد، أو أنها تتمة لقصائد لم تصل إلينا. يضاف إلى ذلك أنّ كثيراً من قصائده، وردت في المصادر المختلفة بتفاوت في عدد أبياتها، واختلاف كبير في ترتيبها.

٣. إن الكثير من المصادر الأدبية والتاريخية للفترة التي عاشها الشهاب محمود ما زالت مخطوطة، أو أنها فقدت، ولم يبق إلاّ أسماؤها، وهذا يعني أن الكثير من أشعاره الجهادية ما زالت في بطون المصادر والمخطوطات. ويؤيد ذلك ما ذكره الذهبي في "تاريخ الإسلام" من أن شهاب الدين محمود عمل في فتح طرابلس قصيدة في مدح

الأمير لاجين، وقصيدة أخرى في مدح ملك الأمراء بَلَبان الطباخي[(١)] ولم يورد الذهبي ولو بيتاً واحداً من أبيات هاتين القصيدتين. ولكن محقق " تاريخ الإسلام " ذكر مطلعيهما، نقلاً عن مخطوطة " نثر الجمان" لليافعي[(٢)].

٤. ذكر صاحب " المنهل الصافي" - وهو ممن عنوا بالاستدلال بشعر الشهاب محمود- أنه لمّا فتح علم الدين سنجر الدواداري بعض الحصون، كتب إليه شهاب الدين محمود يهنئه، ويذكر جراحة أصابته بقصيدة أولها[(٣)]:

ما الحربُ إلاّ الذي تدمى به اللِّمم	والفخر إلا إذا زان الوجوهَ دمُ
ولا ثباتَ لمن لم تلقَ جبهته	حدَّ السيوف ولا يثنى له قدم

ولم نعثر - فيما بين أيدينا من مصادر- سوى على أربعة أبيات أخرى من تلك القصيدة التي اكتفى ابن تغري بردي بإيراد بيتين منها.

٥. أورد ابن تغري بردي عشرة أبيات من قصيدة الشهاب محمود في موقعة الفرات[(٤)]، وعقّب عليها بعبارة: "وهي أطول من ذلك"[(٥)]، ولكن المصادر الأخرى، التي أوردت القصيدة، لم تزد عن الأبيات العشرة التي ذكرها، بل إن بعضها اكتفى بذكر خمسة أو ستة أبيات منها[(٦)]. وهذا يعني أنّ هناك أبياتاً من هذه القصيدة لم تصل إلينا.

---

(١) من مماليك المنصور قلاوون، توفي سنة ٧٠٦هـ، انظر ترجمته في الوافي بالوفيات: ١٤/ ص١٧٨.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ٦٨١- ٦٩٠هـ): ص٣١، حاشية (١)، (٢).

(٣) المنهل الصافي: ٢/ ص٩٩، وسنجر الدواداري: هو سنجر بن عبد الله التركي، من أعيان أمراء الملك المنصور قلاوون وولده الأشرف خليل وفرسانهم، توفي سنة ٦٩٧هـ (انظر ترجمته في المنهل الصافي: ٦/ ص٧٨، وتذكرة النبيه: ١/ ص٢٠٦). وانظر الأبيات ص ١٥٢ من بحثنا هذا.

(٤) النجوم الزاهرة: ٧/ ص١٥٩- ١٦٠.

(٥) المصدر نفسه: ٧/ ص١٦٠.

(٦) انظر القصيدة ومصادر تخريجها ص١٤٣ من دراستنا هذه.

٦. تذكر المصادر أن الظاهر بيبرس كان يكنى أبا الفتح، لكثرة فتوحه، وأنه استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قيسارية، وصفد، والرملة، ويافا، وأنطاكية، وغيرها[١]. ولم يدوّن ابن تغري بردي وغيره من أصحاب المصادر، شيئاً من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة.

٧. عاصر الشهاب محمود السلطان محمد بن قلاوون، ولكننا لا نجد فيما بين أيدينا من شعره، شيئاً في مديح هذا السلطان، أو وصف معاركه التي خاضها ضد التتار، سوى هذا البيت وهو مطلع قصيدة له:

ظفرتَ بأجر الغزو والحج في عام　　　فلم يُنْضَ درع الحرب إلاّ لإِحرامِ

وقد ذكر ابن حبيب هذا البيت في حوادث سنة ٧١٢هـ، عندما حاصر التتار الرحبة، فتوجّه إليهم السلطان محمد بن قلاوون، ففكوا الحصار وهربوا، وتوجه بعدها السلطان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فقال الشهاب محمود قصيدة، البيت المذكور أوّلها[٢].

وإذا كانت سلطنة محمد بن قلاوون اسمية في الفترة من ٦٩٣هـ - ٧٠٨هـ، فإن الأمور استتبّت له تماماً في الفترة من ٧٠٩هـ إلى وفاته سنة ٧٤١هـ. وهذا يعني أن الشهاب محمود عاصره ما يقارب ستة عشر عاماً، كان يعمل لديه خلالها رئيساً لديوان الإنشاء في القاهرة وكاتباً للسر في ديوان الإنشاء بدمشق[٣]، ومن غير المعقول أنه لم ينظم شعراً في مديح هذا السلطان، ووصف معاركه التي خاضها ضد المغول.

---

(١) الوافي بالوفيات: ١٠/ ٢٠٧، وفوات الوفيات: ١/ ص٢٤٠، والروض الزاهر: ص١١، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ٢٠/ ص٩٨.

(٢) تذكرة النبيه: ١/ ص٤٦.

(٣) بدائع الزهور: ج١ ق١ ص٤٨٤.

٨. أورد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في كتابه "تاريخ الإسلام"[١] عشرة أبيات من قصيدة للشهاب محمود في فتح عكا مطلعها:

الشِّرك أجلى وانجلتْ ظلماتُهُ   والدِّينُ قرّ وأشرقتْ قسماته

وذكر الذهبي أنها مائة وخمسون بيتاً[٢]. والذي عثرنا عليه – بعد الاستقصاء والتنقيب في المصادر–من أبيات هذه القصيدة لا يتجاوز عشرين بيتاً[٣]، وهذا يعني أنّ أبياتاً كثيرة منها لم تصل إلينا. ولرواية الذهبي أهمية من ناحيتين: أولاهما، أنه من الرواة الثقات، والثانية، أنه من معاصري الشهاب محمود، وممن رووا عنه[٤].

وبما أننا – في هذه الدراسة – لا ندرس شعر الشهاب محمود كلّه، بل ندرس شيئاً محدوداً ومخصوصاً من شعره، وهو شعره الجهادي، الذي واكب الغزوين الصليبي والمغولي، وقد رجحنا أنّ كثيراً من هذا الشعر لم يصل إلينا، فإنه ينبغي أن نتريّث في إصدار الأحكام، وعدم تعميمها على شعر الشهاب محمود في الموضوعات الأخرى، ولا سيّما أن ما بين أيدينا من شعره الجهادي أقلّ كمّاً، وأضيق مدى من شعره في الموضوعات الأخرى.

وها نحن بصدد دراسة الظواهر الفنية في شعره الجهادي، وذلك ضمن العنوانات الآتية:

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦٨١- ٦٩٠ هـ): ص٦٢.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) انظر الأبيات ص ١٣٥ من دراستا هذه.

(٤) انظر ص من ٢٢ بحثنا هذا.

بناء القصيدة:

بين أيدينا من شعر الشهاب محمود الجهادي تِسع قصائد، واكبت الغزوين: الصليبي والمغولي، وصوّرت أحداثهما. وهي جميعاً تمثّل بناءً واحداً مطرداً من حيث مقدماتها، فلا نجده في أيّ من قصائده تلك يبدأ بالمقدمة الغزلية، والوقوف على الأطلال.

وإذا كان بين أيدينا مقطّعات وأبيات مفردة من شعره الجهادي، جَعَلتْنا نرجح أنها أجزاء من قصائد طويلة، لكنها لم تصل إلينا كاملة، فإنّ بين أيدينا عدد من قصائده، التي نطمئن إلى أنها وصلت إلينا كاملة، ولكنها أيضاً خلَتْ من المقدمات الغزلية.

إن قصائد الشهاب محمود الجهادية، تدخل في الموضوع مباشرة، وتبدأ بدايات حاسمة موحية بطبيعة الموضوع، ويظهر ذلك جليّاً في مطالعه واستهلالاته . فقد بدأ قصيدته في مدح الظاهر بيبرس، ووصف انتصاره على المغول، بتمجيد القوّة والعزيمة، فقال:

كذا فلْتكن في الله تمضي العزائم   وإلاّ فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ

وهذا الاستهلال، يذكرنا باستهلالات المتنبي في قصائده الحربية، التي كان يبدأها باسم الإشارة، الذي يفيد جلب الانتباه لأمر جليل، ولا غرو في ذلك، فالشهاب محمود في هذه القصيدة يعارض – كما سنبيّن- قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة.

ويستهل قصيدة أخرى في مدح الظاهر بيبرس، عند خوضه الفرات، ومطاردته فلول المغول بتمجيد القائد، وقرن استعداده بالعون الإلهي، فيقول:

سِرْ حيثُ شئت لك المهيمن جار   واحكمْ فطَوْعُ مرادك الأقدارُ

وقصيدته في مدح المنصور قلاوون، ووصفه لفتحه طرابلس، بدأها بشكر الله، المنعم على ذلك النصر، ويخلص للسلطان الطاعة ويدعو له بالتوفيق والسداد، فيقول:

علينا لمن أولاك نِعْمته الشكرُ　　لأنك للإسلام يا سَيْفه ذُخرُ

ومنّا لك الإخلاص في صالح الدعا　　إلى من له في أمر نصرتك الأمرُ

أمّا قصيدته في فتح حصن المرقب على يد قلاوون وجنده، فقد بدأها بقوله:

الله أكبرُ هذا النصرُ والظفرُ　　هذا هو الفتح لا ما تزعم السِّيَرُ

وأي بداية للقصائد الجهادية أحسن من ابتداء القصيدة بالتكبير والبشرى بالنصر؟

ويبدأ قصيدته المطولة في فتح عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون بحمد الله، الذي أذلّ الأعداء، وأعز الدين فيقول:

الحمدُ لله ذلّت دولة الصُّلُب　　وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

واستهل قصيدته، التي وصف فيها معركة حمص، ومدح السلطان حسام الدين لاجين، الذي كان قد شارك في تلك المعركة تحت قيادة قلاوون، بقوله:

أطاعَك الدهرُ فأمر فهو ممتثلُ　　واحكمْ فأنت الذي تُزْهى به الدول

وهذه المطالع التي عرضناها، جاءت قوية موحية، معبّرة عن الحدث، مستمدة من الحدث ذاته، ومن الواقع الذي يحيط به، متلائمة مع موضوع الحدث. والشهاب محمود في ذلك، شأنه شأن المتنبي، ومن ساروا على نهجه في إسقاط المقدمة الغزلية، من قصائد الحرب والمقاومة، ويبدأها ببدايات حاسمة، موحية بطبيعة الموضوع. ونرى في هذه الافتتاحات براعة استهلال من ناحية، وملاءمة للموضوع الذي يتحدث عنه، وهو الحديث عن المعارك من ناحية أخرى.

وما دمنا بصدد الحديث عن مطالع قصائد الجهاد عند الشهاب محمود، فلا بأس في الإشارة إلى أن الباحث في قصائد المواجهة مع الصليبيين والمغول يجد أنها متشابهة إلى حد كبير في الجو الحماسيّ الذي تصوره وتثيره في وقت واحد. ولذا فقد أصبح من الطبيعي أن تجيء مقدمات كثير من تلك القصائد متشابهة إلى حدّ ما في مطالعها عند الشاعر الواحد، وعند غير واحد من الشعراء. فمطلع قصيدة الشهاب محمود:

الله أكــبرُ هــذا النــصرُ والظفــرُ   هـذا هـو الفتح لا مـا تـزعم السِّيَرُ

مضمّن مطلع قصيدة لابن دنينير اللخمي، قالها يمدح ويعظم النصر في موقعة دمياط سنة ٦١٥هـ[(١)]:

هـا قـد بلغـت الـذي قـد كـان يُنْتظـرُ   الله أكــبرُ هــذا النــصرُ والظفــرُ

فصدر بيت الشهاب محمود هو نفسه عجز بيت ابن دنينير.

وللرشيد بن بدر النابلسي قصيدة في فتح بيت المقدس مطلعها[(٢)]:

هـذا الـذي كـانت الآمـال تنتظـر   فليــوف لله أقــوام بمــا نــذروا
بمثـل ذا الفـتح لا والله مـا حُكِيـتْ   في سـالف الـدهر أخبـار ولا سِـيرُ

وهذان البيتان ضمّنهما الشهاب محمود في بيتيه، اللذين جعلهما مطلعاً لقصيدته في فتح حصن المرقب:

---

(١) الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين: ١/ ص٣١٦، وابن دنينير (٥٨٣ - ٦٢٧هـ) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اللخمي الموصلي، له ديوان شعر، اتصل بخدمة الملك الكامل الأيوبي ومدحه (الأعلام: ١/ ص٦٢).

(٢) البيتان من قصيدة في الروضتين: ٢/ ص١١٨.



الله أكبــر هــذا النــصر والظفــر هــذا هــو الفــتح لا مــا تــزعم الــسِّيَرُ
هذا الـذي كانـت الآمـال إن طمحـتْ إلى الكواكــب ترجــوه وتنتظــر

ومطلع قصيدة الشهاب محمود:

كــذا فَلْــتكُنْ في اللهِ تمــضي العــزائمُ وإلاّ فــلا تجفــو الجفــون الــصوارم

مضمّن مطلع قصيدة حماسية لطلائع بن رُزّيك في الانتصار على الصليبيين في غزّة وعسقلان سنة ٥٥١هـ[1]:

ألا هكــذا في الله تمــضي العــزائم وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم

وبوسعنا أن نسوق العديد من الشواهد على هذه الظاهرة، ولكننا لا نريد – في هذا المقام – إحصاءً أو حصراً، وإنما هدفنا أن نشير إلى هـذا التشابه اللافت للنظر في مطالع قصائد الجهاد والمقاومة في هذا العصر.

وتتحدث قصائده الجهادية عن موضوع واحد، فتصوّر كلٌّ منها الفتح وآثاره، والفاتح، والعدو المحتل، والمعركة، وهي العناصر المشتركة في جميع قصائده. وكلّ واحد من هذه العناصر يرتبط بالعناصر الأخرى. وهي موضوعات مترابطة، على الرغم مما قد يبدو من تعدّد موضوعات القصيدة الجهادية في الظاهر. إن الحديث عن النصر، والتغني به، والحديث عن القائد إلى النصر، والحديث عن العدو الذي آل إلى الهزيمة في تلك المعركة، يرتبط ببعضه الآخر لا محالة. ولذلك فقد تميزت كل واحدة من هذه القصائد بوحدة موضوعية تجمع أجزاءها وتنتظم عناصرها.

---

(١) القصيدة في: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام: ص٣٣٧، وانظر ترجمة طلائع بن رزّيك في: الأعلام، ٣/ ص٣٢٩.

أمّا خواتيم قصائده الجهادية فغالباً ما تكون بدعاء الله أن يحفظ الممدوح القائد، وأن يبقي رايته منصورة خفاقة، كقوله في ختام إحدى قصائده في مدح السلطان قلاوون:

فلا زِلْتَ منصورَ اللواء مؤيّداً ... على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم

وقوله في ختام قصيدة يمدح فيها الأشرف خليلاً:

فلا بَرِحت قرير العين مبتهجاً ... بكلّ فتح مبين الفتح مرتقب

وقوله في ختام قصيدة يمدحه فيها أيضاً:

وَدُمْ وابقَ للدنيا ليحيا بك الهدى ... ويزهى على ماضي العصور بك العَصْرُ

وقوله في ختام قصيدة مدح بها الظاهر بيبرس:

فَلأمْلأنَ الدهرَ فيك مدائحاً ... تبقى بقيتَ وتذهب الأعصارُ

والشهاب محمود في قصائده الجهادية طويل النفس، وله قدرة على نظم القصائد المطولة، ويرجع ذلك إلى أهمية الحدث الذي تتناوله قصائده، فالفتح تحسن فيه الإطالة؛ لأن فيه حديثاً، عن القائد والجيش، ووصفاً للمعركة وأسلحتها، ووصفاً للعدو، وما آل إليه من مصير وقد لاحظ القدماء هذه السمة، وميّزوه بها عن غيره[1]، ولذلك كانوا يكتفون بنقل أجزاء من قصائده خشية الإطالة[2].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ص١١٨، وشذرات الذهب: ٦/ ص٢٢٧، وأعيان العصر للصفدي: ٥/ ص٣٧٣.

(٢) النجوم الزاهرة: ٧/ ص١٦٠، ص٣٢٣.

الانجذاب إلى التراث (الاتباعية):

وتتمثل هذه الظاهرة في عدة أمور، منها:

١. ولوع الشعراء بمعارضة القصائد التي ذاعت في عالم الشعر، فقصيدة أبي تمام في فتح عمورية، والتي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجِد واللّعب

شغلت كثيراً من الشعراء، إذ عدّوها مثلاً أعلى من أشعار الحماسة والحرب. وها هو الشهاب محمود يعارض تلك القصيدة بقصيدته التي وصف فيها فتح عكا، ومطلعها:

الحمدُ لله زالت دولةُ الصّلُب ... وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

ووجه الشبه ما بين القصيدتين غير مقتصر على الوزن والقافية، وإنها يتجاوز ذلك إلى المعاني والألفاظ في كثير من أبياتها. فقد حاول الشهاب محمود محاكاة أبي تمام في صياغته، كما أنّه تعقّبه في معانيه، فأعاد بناء قصيدة أبي تمام بلفظ جديد، مع حرصه على الوزن (البحر البسيط)، والقافية (حرف الباء). وليس من هدفنا استقصاء التشابه بين أبيات القصيدتين، ولكننا سنكتفي بإيراد بعض الشواهد الشعرية[1]:

فقول الشهاب محمود:

يا يوم عكا لقد أنْسَيْت ما سبَقتْ ... به الفتوح وما قد خُطّ في الكتب

يشبه في صياغته قول أبي تمام:

---

(١) انظر قصيدة أبي تمام في شرح ديوانه بتحقيق د. محمد عبده عزام: ص٤٠ - ٧٤، وقابل أبيات قصيدة الشهاب محمود ص ١٣١-١٣٣ في دراستنا هذه.

يـا يـوم وقعـة عموريـة انـصرفت   عنـك المنـى حُفّـلاً معـسولة الحَلـب

وقول الشهاب محمود:

لم يبلـغ النطـقُ حـدّ الـشكر فيك فـما   عـسى يقـوم بـه ذو الـشّعر والخطـب

يشبه قول أبي تمام:

فـتحُ الفتـوح تعـالى أن يحـيط بـه   نظـم مـن الـشعر أو نثـر مـن الخُطـبِ

وقوله:

تَـسَنّموها فلـم يـترك تَـسَنّمهم   في ذلـك الأفـق برجـاً غـير منقلـب

يشبه قول أبي تمام:

وصـيّروا الأبـرج العليـا مرتّبـة   مـا كـان منقلبـاً أو غـير منقلـب

وقول الشهاب محمود:

تحكّمـتْ وسَـطتْ فـيهم قواضـبنا   قـتْلاً وعفّـت لحاويهـا عـن الـسَّلَب

يشبه قول أبي تمام:

إنّ الأسـود أسـودَ الغـاب همّتُهـا   يـوم الكريهـة في المسلوب لا الـسّلبِ

وقوله:

أمّ الحـروبُ فكَـمْ قـد أنـشأت فتنـاً   شـاب الوليـدُ بهـا هـولاً ولم تـشبِ

يشبه قول أبي تمام:

مـن عهـد اسـكندر أو قبـل ذلـك قـد   شابت نـواصي الليـالي وهـي لم تـشب

وقول الشهاب محمود:

لمّا رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخرابُ لها أعدى من الجرب

ورد بلفظه في قصيدة أبي تمام يصف عموريّة.

وهناك أبيات أخرى كثيرة في قصيدة الشهاب محمود شابهت في ألفاظها ومعانيها أبياتاً في قصيدة أبي تمام مشابهة كبيرة لا يقبل القول فيها: إنّها من توارد الخواطر، ووقع الحافر على الحافر.

ولم يكتف الشهاب محمود بمعارضة قصيدة أبي تمام في وزنها وقافيتها، ومحاكاتها في صياغتها في كثير من أبياتها، وإنما نلمس الحوار النّصي بين الشاعرين في المعاني والسياقات والصور من تشبيهات واستعارات وكنايات وغيرها. فعلى سبيل المثال استخدام الشاعرين للنار التي أشعلها الظافرون بالمدينة المفتوحة، فيقول أبو تمام في فتح عمورية مخاطباً المعتصم:

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشب

غادرْتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحىً ... يُقلّه وسطها صُبْحٌ من اللّهب

حتى كأن جلابيبَ الدجى رَغِبَتْ ... عن لونها أو كأنَّ الشمس لم تَغِبِ

ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ في ضحى شَحِبِ

فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أفِلَتْ ... والشمسُ واجبةٌ في ذا ولم تَجِبِ

لقد استغل أبو تمام النار ومتداعياتها من النور والدخان والظلمة في صياغة تتابعت فيها الصور، وتعانقت لتشترك جميعاً في رسم لوحة رائعة.

ولا يرْقى الشهاب محمود إلى هذا المستوى الفني لأبي تمام في تحاوره معه، وإن حاول تقليده، فقد حاول توظيف بعض صياغاته، وعناصره التعبيرية في وصف النار،

على أنه أدخل عناصر تعبيرية من معطيات عصره، كالتضمين والاقتباس من ألفاظ القرآن الكريم، فقال:

أَسَلْتَ فيها كما سالت دماؤهم … من قبل إحرازها بحراً من الذهب
وحُطْتها بالمجانيق التي وقفت … إزاء جدرانها في جَحفلٍ لَجِبِ
وجالَت النارُ في أرجائها وَعَلَتْ … فأطفأت ما بصدر الدين من كُرَبِ
أضحتْ أبا لهب تلكَ البروجُ وقد … كانت بتعليقها حمّالةَ الحطب

ومن الجدير بالذكر أنّ شاعر الحروب الصليبية ابن القيسراني (ت٥٤٨هـ)، كان قد تأثر في كثير من قصائده بشعر الحماسة عند أبي تمام والمتنبي، كما أنه عارض قصيدة أبي تمام في فتح عمورية بقصيدة يمدح فيها نور الدين زنكي مطلعها:

هذي العزائم لا ما تدّعي القضب … وذي المكارم لا ما قالت الكتب

ونجد الشهاب محمود في قصيدته (البائية) التي أوردنا أبياتاً منها، متأثراً بأبيات كثيرة من قصيدة ابن القيسراني هذه، التي ترتد أكثر أبياتها إلى أصولها في قصيدة أبي تمام. وكأني بالشهاب محمود في قصيدته المذكورة قد ترسّم خطى أبي تمام وابن القيسراني في آن واحد.

وابن القيسراني قريب عهد بالشهاب محمود زمناً وموطناً، فهو من شعراء القرن السادس الهجري، عاصر الغزو الصليبي، وشاهد أهواله. كما أنه استوطن مدينة حلب، مسقط رأس الشهاب محمود، في ظل نور الدين زنكي، وأقام في دمشق زمناً يمدح حكامها.

وإذا كنّا قد قارنّا بعض أبيات قصيدة الشهاب محمود بمثيلاتها من قصيدة أبي تمام، فإننا نجد كذلك تشابهاً في الألفاظ والمعاني بين أبيات كثيرة من قصيدة الشهاب محمود ونظائرها في قصيدة ابن القيسراني، التي منها[1]:

---

(١) انظر القصيدة كاملة في الروضتين: ١/ ص٥٨.

هـذي العـزائم لا ما تـدّعي القُـضُبُ　　وذي المكـارمُ لا مـا قـالت الكتُـبُ
وهـذه الهِمَـمُ اللاتـي متـى خطبت　　تعثّـرتْ حولهـا الأشعـار والخطـب
غَـضِبَتْ للـدِّين حتـى لم يَفُتْكَ رِضىً　　وكـان ديـنُ الهـدى مرضـاته الغـضب
طهّـرتَ أرضَ الأعـادي مـن دمـائهم　　طهـارةَ كـلّ سـيف عندهـا جُنُـبُ
مـن كـان يغـزو بـلاد الـشرك مكتسباً　　مـن الملـوك فنـور الديـن مُحْتَـسِبُ
وللظُّبـاَ ظَفَـرٌ حلـو مذاقتـه　　كـأنها الـضَّرْب فيمـا بيـنهم ضَرَبُ
وللأسنـة عمـا فـي قلوبهـم　　مـصادر أَقلـوبُ تلـك أم قُلُـبُ
أنبـاءُ ملحمـةٍ لـو أنهـا ذُكِـرَتْ　　فـيما مـضى نَـسِيَتْ أيامَهـا العَـربُ

وقصيدة الشهاب محمود في مدح السلطان الظاهر بيبرس، والتي مطلعها:

كـذا فلـتكن في الله تمـضي العـزائم　　وإلاّ فـلا يجفـو الجفـونَ الـصوارم

إنّها هي معارضة لقصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة، والتي مطلعها:

عـلى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم　　وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارم(١)

وتتشابه القصيدتان في الجو العام، وفي الوزن والقافية، ويطول بنا القول إذا تتبّعنا أبيات القصيدتين، وكشفنا ما بينهما من تشابه، ولكننا نكتفي ببعض الأبيات للاستشهاد والتمثيل:

فقول الشهاب محمود:

توسْوَسَـت الـسُّمر الدّقاق فأصبحت　　لهـا مـن رؤوس الـدارعين تمـائمُ

(١) انظر القصيدة في ديوان المتنبي (تحقيق د. عمر الطباع): ٢/ ص٣٥٢- ٣٦٢.

يشبه في صياغته ومعناه قول المتنبي في وصف قلعة الحدث:

وكـان بهـا مِثْـلُ الجنـون فأصـبحت ومـن جُثـث القـتلى عليهـا تمـائم

وقول الشهاب محمود:

فيـا ملـك الإسـلام يـا مَـنْ بنـصره عـلى الكفـر أيـام الزمـان مواسـم
مليـك لـه بالـدين في كـل سـاعة بـشائر للكفّـار منهـا مـآتم

يشبه قول المتنبي:

ولـستَ مليكـاً هازمـاً لنظـيره ولكنـك التوحيـد للـشرك هـازمُ

والشهاب محمود في وصفه لجيش السلطان الظاهر بيبرس في القصيدة نفسها:

سَرتْ من حِمى مصر إلى الروم فاحتوت عليـه سـورات الظُّبـا واللهـاذم
بجيـش تَظَـلّ الأرض منـه كأنهـا عـلى سـعة الأرجـاء في الـضيق خـاتمُ
كتائـب كالبحـر الخِـضم جيادهـا إذا مـا تهـادت موجـه المتلاطـم

إنما يستمد صوره هذه من قصيدة المتنبي، والتي منها:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجـوزاء منـه زمـازم
تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـةً ووجهـك وضّـاح وثغـرك باسـم

٢. وإذا ما تركنا معارضات الشهاب محمود في قصائده الجهادية، فإننا نجد له أبياتاً تأثر في معانيها وصورها بأبيات لشعراء سابقين، فقوله:

سِرْ حيث شئت لـك المهيمن جـار واحكـمْ فطـوعُ مُـرادك الأقـدار

شبيه بقول المتنبي في سيف الدولة[1]:

سِرْ حلَّ حيث تحله النوار ... وأراد فيك مرادك الأقدار
وأراك دهرك ما تحاول في العدا ... حتى كأن صروفه أنصار

والتشابه هنا ليس في المعنى فقط، بل تعداه إلى الوزن وهو البحر الكامل، والروي وهو الراء المضمومة.

أمّا قول الشهاب محمود في وصف الخوف الذي دبّ في قلوب المغول بعد هزيمتهم في موقعة حمص:

كأن هاربهم والخوف يطلبه ... يبدو لديه مثال منه أو مثل
فإن تنبّه يوماً راعه وإذا ... أَغْفى جَلَتْه عليه في الكَرى المُقَل

فإنه قريب من قول المتنبي في المنهزمين أمام سيف الدولة[2]:

وما نجا من شِفارِ البِيضِ مُنْفلتٌ ... نَجا ومِنْهُنّ في أحشائِه فَزَعُ

فالصورتان خرجتا من أصل واحد، وإن تكن الصورة عند الشهاب محمود أشمل وأدقّ في التفاصيل.

وقول الشهاب محمود في المديح:

وانهض بعزمك فهو الجيش يقدمه ... من بأسك المنذران الرعبُ والوجَلُ
وسِرْ به وحده لا بالجيوش وإن ... لم يَحْوِها الأرحبان السهلُ والجبلُ

شبيه في معناه بقول أبي تمام في المعتصم:

---

(١) ديوان المتنبي (تحقيق د. عمر الطباع): ١/ ص٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ص٥٢٩.

لـو لم يقـد جحفـلاً يـوم الـوغى لغـدا ... من نفسه وحـدها في جحفـل لجـب[1]

وقول الشهاب محمود:

عُيـونٌ إذا الحـرب العـوان تعرّضـتْ ... لخطّابهـــا بـــالنفس لم يغلُهـــا مَهْـــرُ

شبيه في معناه بقول أبي فراس الحمداني:

تهـــون علينـــا في المعـــالي نفوســـنا ... ومـن يخطـب الحـسناء لم يغلـه المهـر

وقول الشهاب محمود:

أقامت صلاة الحرب ليلاً صخورها ... فأكثرهـــا شـــفع وأكبرهـــا وَتْـــر

شبيه بقول ابن القيسراني:

وصـــلّت بمعـــراج النبـــي صـــوارمٌ ... مـساجدها شـفع وسـاجدها وَتْـرُ[2]

٣. ومـن مظـاهر الانجـذاب إلى الـتراث، والتـأثر بالـشعراء الـسابقين، في وصـف المعارك عند الشهاب محمود استعمال ألفاظ الغزل في أوصاف الحرب. وهو في هـذا متـأثر بأبي تمام وبالمتنبي، الذي قيل عنه: " إنّه تفرّد باستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب"[3].

وهذه بعض الشواهد من شعره في هذا المجال:

يقول في فتح عكا، من قصيدته التي عارض بها قصيدة أبي تمام في فتح عمورية:

---

(١) البيت من قصيدة في فتح عمورية، انظر شرح ديوان أبي تمام: ١/ ص٥٩.

(٢) البيت من قصيدة في كتاب الروضتين: ١/ ص٧٣.

(٣) يتيمة الدهر: ١/ ص٢٠٩.



ورُضْتَهــا بنقــوبٍ ذلّلــتْ شَمَمــاً ... منهــا وأبــدَتْ مُحيّاهــا بــلا نَقَــبِ
وأبــرزتْ كــلّ خــوْدٍ كاعــبٍ نثـرت ... رؤوسهــم حـين زفوهــا بــلا طـرب
باتــتْ وقــد جاوَرَتْنــا ناشــزاً وغــدت ... طـوع الهـوى في يـدي جيرانهـا الجنُـب

ويقول في وصف حصن المرقب:

يختـال كالغـادة العـذراء قـد نظمـت ... منــه مكــان الــلآلي الأنجــم الزهــر
لهــا الهــلال ســوار والــسُّها شــنف ... والقلبُ قلـبٌ وسـود الدجـى طـرر
وللنقــوب دبيــبٌ فــي مفاصلــه ... تثيــر سقمــاً ولا يبــدو لــه أثــر
أضــحى بــه مثـل صـبّ لا يبـين بـه ... نــار الهـوى وهـي في الأحـشاء تـستعر

ويقول في وصف قلعة الروم:

فكـمْ فَطَمـتْ طوعـاً وكرهـاً معاقــلاً ... مـضى الـدهر عنهـا وهـي عانـسةٌ بكْـر
بذلــت لهــا عزمــاً فلــولا مهابــةٌ ... كـساها الحيـا جاءتـك تـسعى ولا مهـر
فأضـحت بهـا كالـصبّ يخفـي غرامـه ... حــذار أعـاديــه وفي قلبــه جمــرُ

وربط صورة المدن والثغور المستعصية على الفاتحين بصورة المرأة البكر الممتنعة سبق إليها أبو الطيب المتنبي، ونجد مثل هذه الصورة التقليدية عند الشهاب محمود في قوله يصف فتح طرابلس:

مُمَنَّعــةٌ بِكــرٌ وهــل في جميــع مــا ... تملّكتــــه إلاّ ممنّعــــةٌ بِكــــرُ

٤. ومن مظاهر الانجذاب إلى التراث أيضاً، ظاهرة التضمين، التي سمّاها النقاد بالإيداع، وتتمثل في أن يودع الشاعر شعره بعض شعر غيره، وقد عدّ نقاد العصر ذلك الصنيع من مظاهر الجمال. وصنّفوه ضمن ألوان البديع، يقول ابن حجة: " والإيداع

الذي نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت، أو رُبع بيت بعد أن يوطئ له توطئة مناسبة"[1].

ويعرض ابن حجة طرائق الشعراء في ذلك، ثمّ يبيّن الرتبة العليا منه فيقول: "وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول، ويجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدراً، أو صدره عجزاً..."[2].

واستجابة لهذا المطلب الجمالي راح الشعراء يفتنون في إيداع شعرهم بعض الشعر القديم، أو الأمثال. ومن تضمينات الشهاب محمود في قصائده الجهادية، قوله في قصيدة يمدح بها نائب السلطنة بالشام حسام الذين لاجين:

أَستغفرُ الله أين الفَضْلُ منفصلاً	مِنْ بِرّه وهو طولُ الدّهرِ متصلُ
مَنْ حاتمٌ عدّ عنه واطَّرِحْ فَبِهِ	في الجودِ لا بسواه يُضرَبُ المثلُ
أينَ الذي بِرّه آلالاف يتبعها	كرائم الخيل ممّن بِرّه الإبلُ
لو مُثّل الجود سَرْحاً قال حاتمهم	" لا ناقة لي في هذا ولاجمل"

فهو في عجز البيت الرابع ضمن المثل (لا ناقة لي في هذا ولا جمل)، الذي يضرب "عند التبرّي من الظلم والإساءة"[3]. وقد أُعجب صلاح الدين الصفدي بحسن التضمين في هذه الأبيات، وعقّب عليه بقوله: " وما أعرف أحداً ضمّن هذا المثل (لا ناقة لي في هذا ولا جمل) أمكن ولا أحسن من قول الشهاب أبي الثناء محمود"[4].

---

(١) خزانة الأدب: ص٤٦١.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال: ٣/ ص١٦٦.

(٤) الغيث المسجم: ١/ ص٥٩.

ويصف الشهاب محمود هزيمة الصليبيين وتفرق شملهم، فيقول:

وتفرّقـــوا أيـــدي سَـــبَأ وســـباؤُهُم　　　جُمِعَـــتْ بـــرغمهم لنـــا أشـــتاته

وهو في صدر هذا البيت يُضَمِّن المثل: " وتفرّقوا أيدي سبأ"، الذي يضرب للتفرّق الذي لا اجتماع له[1].

٥. ومما يدخل في إطار الانجذاب إلى التراث، ويُعدّ دوراناً في فلك القديم ما ذكره النقاد من مصطلحات بديعية تحت اسم (حسن الاتّباع والتوليد). ويعرّف ابن أبي الإصبع حسن الاتّباع، فيقول: " هو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره، فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدّم، إمّا باختصار لفظه، أو قصر وزنه، أو عذوبة قافيته، أو تتميم لنقصه، أو تكميل لتمامه، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم، ويوجب الاستحقاق " [2].

ويتكلّم ابن حجة عن التوليد فيقسمه إلى توليد من الألفاظ وتوليد من المعاني، ويرى أن التوليد من المعاني " هو الأجمل والأستر، وهو الغرض ههُنا، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدّمه ويكون محتاجاً إلى استعماله في بيت قصيد فيورده ويولّد منه"[4].

والأمر بكلّيته لا يعدو أن يكون التفاتاً إلى القديم، وجرياً على سننه، واقتباساً منه، على أن يكون للشاعر في هذا الاقتباس شخصيته المميزة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الاتباع والتوليد بهذا المفهوم قد وردا عند النقاد القدامى، من أمثال ابن طباطبا والقاضي الجرجاني وغيرهما، عندما تحدثوا عن السرقة المدوحة والأخذ الحسن [5].

---

(١) انظر المثل في: مجمع الأمثال للميداني: ٢/ ص٦، وثمار القلوب: ص٣٣٧، والمستقصى في أمثال العرب: ٢/ ص٨٨.

(٢) تحرير التحبير : ص٤٧٥ .

(٤) خزانة الأدب : ص٤١٩ .

(٥) انظر : الوساطة : ص١٨٦-٢١٤، وعيار الشعر ص٧٦-٨٢ .

ولم يكتف الشهاب محمود بتوليد المعاني، بل لجأ إلى التوليد في الصورة والتشبيه، فإذا كان شعراء العرب قد شبّهوا الدماء بالبحر، فنجده يوسّع من الصورة شيئاً ما، ويجعل الدماء خضاباً لسوق السبايا، يقول من قصيدته في فتح عكا:

وخاضت البيض في بحر الدماء فما أَبْدَتْ من البيض إلاّ ساق مختضب

ووصف الشعراء المسالك الموحشة، التي تضلّ فيها الرياح، أو يضلّ فيها القطا، فأخذ ذلك الشهاب محمود في وصفه الطرق المؤدية إلى قلعة الروم، مضيفاً إلى تعثّر الرياح زلّ الذرّ، وإلى ضلال القطا خشية العقاب، وعدم استقرار النسر فقال:

إذا خطرتْ فيها الرياحُ تعثّرتْ أو الذرُّ يوماً زلّ عن متنه الذرُّ

يضلّ القطا فيها ويخشى عقابها العقاب ويهفو في مراقبها النسرُ

ويحاول الشهاب محمود أن يولّد تشبيهاً، في قوله واصفاً قتلى إحدى المعارك:

فأهْوَوا إلى لثْم الأسنة في الوغى كأنهم العشّاق وهي المباسمُ

وصافَحَت البيضَ الصفاحَ رقابُهم وعانقت السمرَ القدودَ النواعِمُ

وهو هنا يحاول الصوغ الجديد، ومحاولة التوليد من قول عنترة:

ولقد ذَكَرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهندِ تَقْطُر من دمي

فوددْتُ تَقبيلَ السيوفِ لأنها لَمَعَتْ كبارق ثغرك المتبسم

وموضع الشاهد هنا تشبيه لمعان السيوف بالثغر الباسم، ولكن الشهاب محمود، يتناول هذا التشبيه، ويولد منه صورة مجددة، مضيفاً إلى اللثم العناق والمصافحة.

وقد أُعجِب الشهاب محمود ببيتي عنترة السابقين، فولّد منهما -كما يرى صلاح الدين الصفدي- قوله[1]:

---

(١) انظر الأبيات وبيتي عنترة في الغيث المسجم: ٢/ ص٤٠.

ولقـد ذكرتُـكِ والحيـاةُ كريهـةٌ	والموتُ يرقبُ تحتَ حِصْنِ المَرقبِ
والحِصْنُ من شَفَقِ الحديدِ كأنه	عذراءُ ترفُلُ في رداءٍ مُذّهَبِ
سَامَى السماءَ فمن تَطاوَلَ نَحْوَه	للسَّمْعِ مُسْتَرِقاً رماه بكوكبِ
والموتُ يلعبُ بالنفوسِ وخاطري	يلهو بخمرةِ ذلك المُستَعْذَبِ

٦. وكان للثقافة الدينية أثرها الكبير في تشكيل ذوق الشعراء إبّان الغزوين: الصليبي والمغولي. والقرآن الكريم هو جوهر هذه الثقافة، ولذا فلا غرابة أن يصبح الاقتباس من القرآن الكريم، والاغتراف من فيض بيانه وتصويره معياراً من معايير الفصاحة والبلاغة.

ومن البديهي أن يلجأ الشهاب محمود، الفقيه الذي حفظ القرآن صبياً إلى الاقتباس من القرآن الكريم. وقد استهل كتابه " حسن التوسل" بدعوة الأديب إلى حفظ كتاب الله تعالى وملازمة درسه حتى يبقى مصوّراً في فكره، ويظل دائراً على لسانه، وسينتفع به في كل ما يعرض له[1].

وليس من همّنا في هذا المقام إحصاء أو حصر اقتباساته من القرآن الكريم، ولكننا سنسوق بعض الشواهد على ذلك، كقوله واصفاً عكا بعد فتحها:

أضحَتْ أبا لَهَبٍ تلكَ البروجُ وقد	كانت بتعليقها حمّالةَ الحطَبِ

فهو هنا يستعير ألفاظاً من الآيتين : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾[2].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في : حسن التوسل، ص٢-٣ .

(٢)سورة المسد : الآيتان ١، ٤ .

وقوله يصف النار التي ترمي بها المجانيق:

لهـا شَرَرٌ كالقـصر ترمـي بهـا العـدا　　　فـلا بُـرْجَ يستعـصي عليهـا ولا قَـصْرُ

يتمثل قوله تعالى في وصف نار جهنم: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

والشهاب محمود في قوله:

ويَعْـصِمها العَـذْب الفـرات وإنّـه　　　لتحصينها كالبحـر بـل دونـه البحـرُ

سريعـاً يفـوت الطـرْف جرْيـاً وحـدُّه　　　كريـح سليمـان التـي يومهـا شهـرُ

يلتقط بعض ألفاظ القرآن الكريم من الآية : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ﴾.[2]

إنّ ما أوردناه من أمثلة على تأثر الشهاب محمود بالشعراء السابقين، واقتباساته من القرآن الكريم، تكشف لنا عن جوانب من ثقافته، كما أننا نجد أثراً من ثقافة نحوية في قوله يصف عكا:

وحُطْتهـا بالمجـانيق التـي وقَفَـتْ　　　أمـام أسـوارها في جَحْفَـلٍ لجِـبِ

مرفوعـة نـصبوا أضـعافها فغـدا　　　للحطـم والكـسر منهـا كـل منتـصب

فـ " الرفع" و" النصب" و " الكسر" الواردة في هذا البيت كلّها من مصطلحات النحو.

---

(١) سورة المرسلات : الآية ٣٢.

(٢) سورة سبأ: من الآية ١٢.

الشغف بالبديع:

أصبح الاتجاه إلى البديع، أو الصناعة اللفظية، من المقاييس الأدبية قبل عصر الشهاب محمود. ولم يكن الاهتمام بالبديع قاصراً على الشعر والنثر الفني، بل تجاوز ذلك إلى لغة المؤلفات، كما هو واضح في كتاب التاريخ، الذي ألّفه العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، وأسماه " الفيح القسّي في الفتح القدسي "[١].

وفي عصر الشهاب محمود أصبح البديع مطلباً يُنشد لذاته، وصار بلاغيو العصر يفتنّون في اختراع ألوانه، فألف ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) كتاباً يبحث في البديع، أسماه " تحرير التحبير"، وبلغت أنواع البديع عنده مئة وعشرين نوعاً. ووصل به ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ) في بديعيته إلى ما يقرب من مائة وأربعين لوناً، مما يدل على مدى تسلط الذوق البديعي على شعراء هذا العصر وكتّابه. وراح بعض الأدباء ينتصرون للون بديعي على آخر، فصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، وهو من تلاميذ الشهاب محمود وملازميه، شغف بالجناس، وألّف فيه مصنّفاً باسم (جنان الجناس)[٢]، جمع فيه كثيراً من شعره، الذي تضمّن هذا اللون البديعي. وابن حجة انتصر للتورية، ورآها الغاية القصوى من غايات البديع[٣].

ومما يدل على تسلط الذوق البديعي على أدباء هذا العصر ازدهار فن البديعيات، حيث ذهب المشغوفون بهذا الفن إلى نظم قصائد في مديح الرسول – ﷺ– ضمّنوا كلّ بيت من أبياتها لوناً من ألوان البديع. وبغض النظر عن موقفنا من هذا الاهتمام بالبديع

---

(١) هذا الكتاب مطبوع.

(٢) هذا الكتاب مطبوع.

(٣) خزانة الأدب:ص٤٠.

والتركيز عليه، فإن من الواضح الجليّ أنّ أدباء هذا العصر قد طغت الصناعة اللفظية على شعرهم ونثرهم طغياناً عظيماً.

وكان الشهاب محمود يتأنق في تعبيره، ويذهب مذاهب شعراء عصره في اهتمامهم بضروب البديع اللفظي والمعنوي، ولننظر إلى الصنعة والتكلّف في هذه المقطوعة، التي يذكر فيها أنواعاً من مصطلحات البديع[1]:

وإنْ تُـرِدْ علـمَ بديـع الهـوى	فـأْتِ إلى عنـدي فعنـدي المـرادْ
جـانَسَ طـرفي الـنجم مـستيقظاً	لي في الـدجى بـين الـسّها والـسُّهادْ
وطـابَق الـشوق لهيبـي بمـا	دمعـي فـضلاً بـين خـافٍ وبـادْ
وقـسّم الوجـد غرامـي كمـا	شـاء وأعـضائي عـلى مـا يُـراد
فمقلتـي للـدمع والجـسم للأنغـا	م و القلـب لحفـظ الـوداد
وفـرّع الحـب الـضنا في الحـشا	عـن مقـل فيهـا منايـا العبـاد
فمـا ظُبـًا أرهفهـا قينُهـا	ليـوم حـرب مـن سـيوف حِـداد
يومـاً بأمـضى مـن جفـون بـدتْ	مـن كحـل خالطهـا في الـسواد
وقُلـتُ بالموجـب في قولهـم	بعـد النـوى يُعـرف صـدق الـوداد
فهـو كمـا قالـوا ولكنـه	يعـرف ممـن ودّه فـي ازديـاد

وتحدَّث الشهاب محمود عن الفنون البلاغية في مقدمة كتابه " حسن التوسل"، ونعتها بالأمور الخاصة، لأنها " من المكملات لهذا الفن، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقحة، والبديهة المجيبة، والروية

(١) الغيث المسجم: ٢/ ص٤٦٣.



المتصرفة"[1]. وهو يرى أن الأديب والكاتب العاريين من هذه الفنون قاصران عن أدنى رتب الكمال، لأنهما يجيدان، ولا يدريان"[2].

أمّا ميل الشهاب محمود إلى البديع وفنونه فيظهر في سرده المفصل لأبواب البديع التي خصّها بالجزء الأكبر من كتابه " حسن التوسل"[3]، فقد عدّدها، بتفريعاتها الكثيرة، وعرّفها، وضرب أمثلة عليها، مما يظهر اتجاهه إلى نهج البديع، وميله إليه باعتباره فن القول.

وأشار الشهاب محمود إلى (الإبداع) وهو تصنّع بديعي جديد أضافه ابن أبي الإصبع المصري، ووضّح الشهاب محمود المقصود بـ (الإبداع)، فقال: " وهو أن يؤتى في البيت الواحد من الشعر، أو القرينة الواحدة من النثر عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جمله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع، ومتى لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع"[4]. وهكذا فالإبداع –عند الشهاب محمود– إنّما يكون في الإسراف باستخدام البديع، والإكثار من استعمال فنونه وضروبه.

ونحن لا نريد أن نصدر حكماً مسبقاً على شعر الشهاب محمود الجهادي من حيث ذيوع البديع فيه، انطلاقاً من ذيوعه في شعر معاصريه. ولكننا من الاستقراء الداخلي لما بين أيدينا من شعره نستبين ولعه بفن البديع بضروبه المختلفة، وبالجناس والطباق بصورة خاصة. ونحن في هذا البحث بصدد دراسة البديع في شعره الجهادي، أمّا شعره في غير هذا الموضوع فإنه محشو بأصناف البديع ولكنه لا يعنينا في هذا المقام.

---

(١) حسن التوسل: ص١١.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) انظر المصدر نفسه: ص١٤– ٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ص٨٨.

وسنورد فيما يلي بعض الأمثلة على الزخارف اللفظية في قصائده الجهادية لمجرد التمثيل، لأن استيعاب هذه الأمثلة أمر صعب؛ فهي كثيرة، وتكاد تمثّل شعر الشهاب محمود الجهادي كلّه.

فمن الجناس في شعره الجهادي قوله:

فأصبحت وهي في بحرين مائلة	ما بين مضطرم ناراً ومضطربِ
جيشٌ من الترك تَرْكُ الحرب عندهم	عار وراحتهم ضَرْبٌ من الضَّربِ

* * * *

إنْ يقتلوا الصّيد في أيدي الجوارح بل	جوارح اللحظ إن يرموا بها قتلوا

* * * *

لها الهلالُ سوار والسّها شنفٌ	والقَلْبُ قُلبٌ وسود الدجى طررُ
جدّدْت ربْعَ الهوى حتى عدت بدلاً	فيه من الصّور المعبودة السُّوَرُ

* * * *

ليوثٌ من الأتراك آجامُها القنا	لها كلّ يوم في ذرى ظَفَرٍ ظُفْرُ

وإذا كان الجناس يمثّل فناً بديعياً يقوم على التداعي في رسم اللفظة أو صوتها، فإن الطباق الذي أولع به الشهاب محمود يمثل تداعياً يحركه معنى الكلمة؛ لأن الشيء قد يميز بضده ونقيضه، كما قال المتنبي:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله	وبضدّها تتميّز الأشياء

أو كما قال القائل:

ضِدّان لما استُجمِعا حَسُنا	والضدُّ يظهر حُسنَهُ الضدُّ

وأمثلة الطباق في شعر الشهاب محمود الجهادي من الكثرة بحيث يتعذر إحصاؤها، ولذا فإننا سنكتفي بأمثلة دالة منها، كقوله:

ما بَعْدَ عكا وقد هُدّت قواعدها — في البحر للشرك عند البرّ من أَرَبِ

أغضبتَ عبّادَ عيسى إذ أبَدْتَهم — لله أي رضىً في ذلك الغضب

****

أضحوا به في مهاد الأرض يكلأهم — من رأفة بهم يقظان إن غفلوا

شمس على البرق حاز البدر يرفعه — عن الهلال فتعلو ثم تستفلُ

****

إذا خفقت في الأرض هدْبُ بنودها — هوى الشّرك واستعلى الهدى وانجلى الثغرُ

إذا صدموا شمّ الجبال تزلزلت — وأصبح سهلاً تحت خيلهم الوعرُ

فكمْ وطئت طوعاً وكرهاً معاقلاً — مضى الدهر عنها وهي عانسةٌ بكرُ

أقامت صلاة الحرب ليلاً صخورها — فأكثرها شفْعُ وأكبرها وَتْرُ

****

فكم وطئتْ طوعاً وكرهاً جياده — معاقل قرطاها السُّها والنعائمُ

بجيش تظلّ الأرض منها كأنها — على سعة الأرجاء في الضيق خاتم

****

فجذْتَ حِلْماً وعِلْماً أنّهم خول — في حوزة القتل إن غابوا وإن حضروا

ومن غدا وفجاج الأرض قبضته — فهم وإن أُطلقوا منه فقد أُسروا

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن الشهاب محمود في شعره الجهادي مال إلى استخدام الطباق أكثر من استخدامه الجناس؛ لأن التجنيس – كما قال- " يحسن إذا قلّ، وأتى في الكلام عفواً من غير كدّ"(١).

ومن ألوان الصنعة المعنوية التي نجدها في شعر الشهاب محمود الجهادي ما يسميه البلاغيون (التقسيم)، الذي هو " استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه"(٢). ومن أمثلته في شعره الجهادي، قوله:

وانهضْ بعزمك فهو الجيش يقدمه	من بأسك المنذران: الرعب والوجل
وسِرْ به وحده لا بالجيوش وإنْ	لم يحوها الأرحبان: السهل والجبل
تلقى الفتوح وقد جاءتك وافدة	يحثّها المزعجان: الشوق والأمل

فقد ذُكر في هذه الأبيات: " المنذران" و" الأرحبان" و " المزعجان"، ثم فصّل المراد بكل منها.

وقوله في القصيدة ذاتها:

فَمَزّقْتهم سطاه ذا يسير وذا	عانٍ أسيرٌ وذا في الترب منجدل

فقد ذكر تمزيقه لهم، ثم فصّل هذا التمزيق ببيان أحوالهم بين هارب وأسير وقتيل.

وقوله:

قَسَمْتهم شطرين غير غريقهم	فللسيف شطر والقيود لها شطر

* * *

(١) حسن التوسل: ص٤٢.

(٢) خزانة الأدب: ص٣٦٢.



وكيف يسمو إليها من تأخر عن إسعاده منجداك: القَدْر والقَدَرُ

والمبالغة من المحسنات المعنوية، التي ينساق إليها الشعراء في تمجيد الأبطال ووصف المعارك، وقد أوردنا أمثلة لذلك من شعر الشهاب محمود الجهادي في الصفحات السابقة. وإذا كان القدماء قد أنكروا على ابن هانئ الأندلسي غلوّه في مدح المعز لدين الله الفاطمي، حين قال[1]:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكُم فأنت الواحد القهّار

فإننا نجد معنى بيته هذا يتردد عند عدد من شعراء الغزوين: الصليبي والمغولي، ويدورون في فلكه، على شاكلة قول الشهاب محمود في مدح الملك الظاهر بيبرس:

سِرْ حيثُ شِئْتَ لك المهيمنُ جارُ واحكُمْ فطوعُ مُرادك الأقدارُ

ولعل إعجاب الشاعر بممدوحه، وانبهاره بشجاعته في خوض الفرات وراء المغول، وتقديره لدوره الكبير في حركة الجهاد الإسلامي، هو الذي دفعه إلى هذه المبالغة.

وعندما يصف الشهاب محمود قلعة الروم بقوله:

وما قلعة الروم التي حُزت فتحها وإن عظمتْ إلاّ إلى غيرها جسْرُ
محجّبةٌ بين الجبال كأنها إذا ما تبدّت في ضمائرها سِرُّ
لها طرق كالوهم أعيا سلوكها على الفكر حتى ما يخيّله الفكرُ

فإنه ينعت القلعة بأنها سرّ مخبّأ في ضمير الجبال، وينعت الطرق المؤدية إليها بوهم يعجز الفكر عن تخيله. ولا شك أن في هذه الأبيات مبالغة، ولكنها مقبولة بقصد التهويل في قوة الجيش الإسلامي الذي استطاع أن يفتح هذه القلعة رغم حصانتها. ونحن لا نوافق

---

(١) البيت في ديوان ابن هانئ الأندلسي (ط بيروت): ص٨٨.

أحد الباحثين، الذي رأى أن المبالغة في هذه الأبيات قد يكون لها أثر عكسي يدفع إلى الاستغراب والتكذيب[1]. فها هو الصلاح الصفدي يعدّ قول الشهاب محمود في وصف حصن المرقب الذي فتحه قلاوون:

كأنّـــه وكـــأن الجـــوّ يكنفــــه   وَهْـــم تمثّلـــه في طيّهـــا الفكـــرُ

من أعلى مراتب التشبيه طبقة[2]. ومتى كان الشعر الجيد نقلاً حرفياً للحقائق، وتصويراً فوتوغرافياً للواقع؟ وهل ننكر على الشهاب محمود قوله:

مـن كـان مبـدؤه عكـا وصـور معـاً   فالـصين أدنـى إلى كفّيـه مـن حَلَـب

بحجة أن هذا القول قد يدفع إلى الاستغراب والتكذيب؟ ونغفل أن نشوة النصر، حين فتح الأشرف خليل عكا، وطهّر بلاد الشام من بقايا الصليبيين، هي التي أَمْلَتْ عليه هذا البيت.

ويدخل في خصائص شعر الشهاب محمود الجهاديّ أيضاً، الإغراب في التشبيه والاستعارة، ولعل هذا الاتجاه في توليد المعاني وتلمّس المخترع منها، ربما يعود إلى ما رسخ في ذهن عدد من الأدباء أن المعاني أتى عليها القدماء، ولم يعد أمام الشعراء المحدثين سوى أن يعيدوا صوغ هذه المعاني من جديد، أو تجديدها بما يضيفون إليها من زيادة اللفظ، أو بما يولدونه من بعض المعاني الفرعية.

ومن نماذج الإغراب في التشابيه والاستعارات في شعره الجهادي، قوله من قصيدة في مدح الظاهر بيبرس:

لّمـا تراقَـصت الـرؤوسُ وحُرِّكـتْ   مـــن مطربـــاتِ قِـــسِيّك الأوتـــارُ

---

(١) د. محمود أبو الخير في كتابه: الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين: ٢/ ص٢٥٠.

(٢) الغيث المسجم: ١/ ص٣٤١.



فقد شبه الشاعر القسيّ، التي تتحرك أوتارها لترمي السهام بآلات وترية بأيدي مطربين تتحرك أوتارها فتشجي السامعين. واستخدام لفظ (تراقصت) لحركة القسيّ من الحقل نفسه، حقل الطرب. ولعل الذي أوحى للشاعر بهذه الصورة نشوة النصر، وفرحته التي رفعت عن قلوب الناس غمّة المغول.

ويستعير الشهاب محمود في وصف أحداث المعركة مع المغول صوراً من الصلاة، فرؤوس المغول التي تقطع تخرّ ساجدة، وأجسادهم التي تُطعن تنحني راكعة، يقول:

والهامُ تسجد والأجسام راكعةٌ	والموت يُقبلُ والأرواح ترتحلُ
والبيض تُغمدُ في الأبطال عاريةً	وتنثني وعليها منهم حُلَلُ

وفي تصويره للنار التي أشعلت قلاع عكا وجدرانها، أقحم تلك الصورة الغريبة على الموقف، وهي صورة رؤوس القتلى والغرقى في البحر وتشبيهها بالحُباب على وجه كأس الخمر، وربما أوحت بهذه الصورة أيضاً نشوة النصر، فقال:

أجْرَت إلى البحر بحراً من دمائهم	فراح كالرّاح إذ غرقاه كالحَبب

وبالإضافة إلى الظواهر الأسلوبية السابقة، التي تلَمّسْناها في الشعر الجهادي عند الشهاب محمود فإننا نقول: إن العامية قد تسرّبت إلى لغة هذا العصر، كما تسرّب إليها ألفاظ اللغات التي خالطتها حينذاك من فارسية وتركية ويونانية وفرنجية[١]. ولكن الشهاب محمود كان يمثل ذوق الصفوة من متأدبي العصر، إذ كان رئيساً لديوان الإنشاء. وكانت ثقافته عربية إسلامية تمثلت في الإلمام بالتراث العربي، شعره ونثره، والتزود بالقرآن الكريم والحديث النبوي، والوقوف على أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ومن هذه الثقافة تشكّل ذوقه الأدبي، الذي ترك آثاره الواضحة في شعره.

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ص٥١٧.

ولذلك حرص على الارتقاء بعبارته، والتأنق في لفظه، والتهذيب فيما عالجه من أعمال أدبية. ولذا فقد تَرَفَّع عن استعمال العامية، كما لا نجد في شعره ألفاظاً تركية أو فارسية كما نجد عند الكثيرين من شعراء عصره. وجرى ما وصل إلينا من شعره الجهادي وفق مقاييس اللغة الفصيحة وقواعدها. وقصائده – كما نعتها صلاح الدين الصفدي- مطوّلة فائقة، ليس يرتفع فيها ولا ينحطّ، بل هي أنموذج واحد ليس فيها ما يُرْمى"[1].

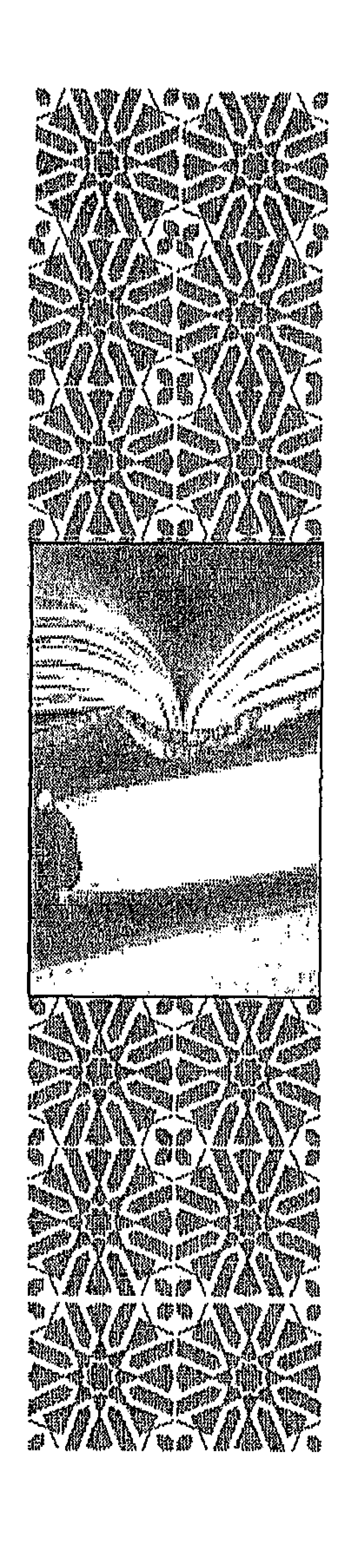
والشهاب محمود يستخدم في شعره الجهادي، البحور الطويلة التي يتاح التعبير بها عن الحركة المتصلة، التي تلائم جوّ الحرب، وتتجسد مع الانفعالات الشديدة، التي تثيرها الحروب والمعارك؛ لذلك استخدم من بحور الشعر: الطويل والبسيط، والكامل.

أما القافية في شعره الجهادي فيأتي حرف الراء على رأسها، إذ استعمله في أربع من القصائد التي وصلت إلينا، وفي قصيدة أخرى استخدم حرف اللام، واستخدم حرف الباء في قصيدته في فتح عكا. والملاحظ أن هذه الحروف التي استخدمها من الحروف التي يكثر استخدامها في قوافي القصائد الحربية في الشعر القديم.

وفي الختام نقول: إنّ هذه الظواهر الأسلوبية، التي تميز بها الشعر الجهادي، عند الشهاب محمود، سيضاف إليها مزيد من الخصائص الفنية، عند دراسة موضوعات شعره الأخرى، نظراً لكثرة شعره وغزارته في تلك الموضوعات.

---

(١) أعيان العصر: ٥/ ص٣٧٣.



الفصل الرابع

ملحـق

من شعره الجهادي

* قصائد الشعر
* المقطوعات

أوّلاً: القصائد

(١)

- من البسيط -

قال يمدح الأشرف خليل بن قلاوون ويصف فتح عكا:

(١) الحمدُ لله ذلّت دولةُ الصُّلُبِ ... وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي

(٢) هذا الذي كانت الآمالُ لو طَلَبتْ ... رؤياه في النوم لاستحيتْ من الطّلَبِ

(٣) ما بعد عكا وقد هُدّتْ قواعِدُها ... في البحر للشرك عند البر من أرَبِ

(٤) عقيلةٌ ذهبتْ أيدي الخطوب بها ... دهراً وشدَّت عليها كفَّ مُغتصبِ

(٥) لم يبقَ من بعدها للكفر مذ خرِبتْ ... في البرّ والبحر ما ينجي سوى الهَربِ

(٦) كانت تخيّلُها آمالنا فنرى ... أنّ التفكّرَ فيها غايةُ العجبِ

(٧) أُمُّ الحروبِ فكم قد أنشأت فِتَناً ... شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تَشِبِ

(٨) سوران: برٌّ وبحرٌ حولَ ساحتها ... دار وأدناهما أنأى من القُطُبِ

(٩) خرقاء أمْنَعُ سوريها وأَحصَنُه ... غلب الكماة وأقواه على النّوبِ

(١٠) مصفَّحٌ بصفاح حولها أكَمٌ ... من الرماح وأبراجٌ من اليَلَبِ

(١١) مثل الغمائمِ تهدي من صواعقها ... بالنبل أضعافَ ما تهدي من السُّحُبِ

(١٢) كأنما كلُّ بُرجٍ حَوله فَلَكٌ ... من المجانيق يرمي الأرض بالشُّهبِ

(١٣) ففاجَأتْها جُنودُ الله يقدُمُها ... غضبانُ لله لا للملك والنَّشبِ

(١٤) كم رامها ورماها قبله ملكٌ ... جمُّ الجيوشِ فلم يَظْفَر ولم يُجَبِ

(١٥) لم ترضَ هِمّته إلاّ الذي قَعَدتْ ... للعجز عنه ملوكُ العُجم والعربِ

(١٦) ليث أبى أن يردّ الوجه عن أمم ... يدعون ربَّ العُلا سبحانه بأب

(١٧) لم يُلْهِه مُلْكُه، بل في أوائله ... نال الذي لم ينله الناسُ في الحِقَبِ

(١٨) فأصبحتْ وهي في بحرين ماثلةً ... ما بين مضطرمٍ ناراً و مضطرب

(١٩) جيشٌ من التُّرك تَرْك الحرب عندهمُ ... (م) عار، وراحتهم ضَرْبٌ من الوصَب

(٢٠) خاضوا إليها الردى والهجر فاشتبه الـ ... أمْران واختلفا في الحال و السبب
(٢١) تَسَنَّموها فلم يترك تسنّمهم ... في ذلك الأفق بُرجاً غيرَ منقلب
(٢٢) تسلّموها فلم تخْلُ الرقابُ بها ... من فتْكِ مُنتقمٍ أو كفّ مُنْتَهِبِ
(٢٣) أتَوا حماها فلم تمنع وقد وثبوا ... عنها مجانيقهم شيئاً ولم يثب
(٢٤) يا يوم عكا لقد أنسيتَ ما سَبَقتْ ... به الفتوحُ وما قد خُطّ في الكتب
(٢٥) لم يبلغ النطقُ حَدَّ الشكر منك فما ... عسى يقوم به ذو الشِّعْر والخُطَبِ
(٢٦) كانت تُمنّي بك الأيام مبعدةً ... فالحمدُ لله نلنا ذاك عن كَثَبِ
(٢٧) أغْضَبْتَ عُبَّادَ عيسى إذ أبَدْتَهُم ... للهِ أيُّ رضىً في ذلك الغضبِ
(٢٨) وأطلعَ اللهُ جيشَ النصرِ فابتدرَتْ ... طلائعُ النصرِ بين السّمرِ والقُضُب
(٢٩) وأشرفَ المصطفى الهادي البشيرُ على ... ما أسلفَ الأشرفُ السلطانُ من قُربُ
(٣٠) فقرَّ عيناً بهذا الفتح وابتهجَتْ ... بفتحه الكعبةُ الغَرَّاء في الحُجُبِ
(٣١) وسار في الأرض سيرَ الريح سُمعتُه ... فالبرُّ في طربٍ والبحرُ في حرَب
(٣٢) وخاضت البيضُ في بحرِ الدماء وما ... أبدتْ من البيض إلاّ ساقَ مُخْتَضِبِ
(٣٣) وغاصَ زُرقُ القنا في زُرْقُ أعينهم ... كأنها شَطَنٌ تهوي إلى قُلُبِ
(٣٤) توقَّدَتْ وهي غرقى في دمائهم ... فزادها الطَّفحُ منها شِدَّة اللّهبِ
(٣٥) وذاب من حرها عنهم حديدهم ... فَقَيَّدَتْهم بها ذعراً يدُ الرَّهب
(٣٦) كم ابرزتْ بطلاً كالطّود قد بطلت ... حواسه فغدا كالمنزل الخَرب
(٣٧) أجْرتْ إلى البحر بحراً من دمائهم ... فَرَاحَ كالرّاحِ إذْ غرقاه كالحَبَب
(٣٨) تحكمتْ وسَطَتْ فيهم قواضبنا ... قتلاً وعفّت لحاويها عن السَّلَب
(٣٩) كأنه وسنانُ الرمْح يطلبه ... برجٌ هوى ووراه كوكب الذّنب
(٤٠) بشراكَ يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ ... بك الممالكُ واستعلتْ على الرُّتَبِ
(٤١) ما بعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شيءٌ تلاقيه على تَعَب
(٤٢) فانهضْ إلى الأرض فالدنيا بأجمعها ... مدّتْ إليك نواصيها بلا نصب
(٤٣) كم قد دَعَتْ وهي في أسر العدا زمناً ... صِيدَ الملوك فلم تُسْمعْ ولم تُجَبِ
(٤٤) أتَيتَها يا صلاحَ الدين معتقداً ... بأنَّ داعي صلاح الدينِ لم يَخِبِ

(٤٥) أسَلْتَ فيها كما سالت دماؤهم ... من قبل إحرازها بحراً من الذهب

(٤٦) أدركْتَ ثأر صلاح الدين إذا غُصِبَتْ ... منهُ لسرٍّ طواهُ الله في اللقب

(٤٧) وَجِئْتَها بجيوشٍ كالسيول على ... أمثالها بين آجامٍ من القُضُبِ

(٤٨) وحُطْتها بالمجانيق التي وَقَفَتْ ... إزاء جدرانها في جَحفلٍ لَجِبِ

(٤٩) مَرفوعةً نصبوا أضعافها فغدا ... للكسر والحطم منهم كلٌّ منتصب

(٥٠) ورُضْتَها بنقوبٍ ذلّلتْ شمماً ... منها وأبدَتْ محياها بلا نُقُب

(٥١) وغنّت البيضُ في الأعناق فارتقصتْ ... أبراجها لعباً منهنّ باللعب

(٥٢) وخُلِّقَتْ بالدم الأسوار فانفغَمتْ ... طيباً ولولا دماءُ الخبثِ لم تَطِب

(٥٣) وأبرزت كلّ خودٍ كاعبٍ بُترتْ ... لها الرؤوس وقد زُفّتْ بلا طرب

(٥٤) باتت وقد جاوَرَتْنا ناشِزاً وغَدَتْ ... طوعَ الهوى في يدي جيرانها الجُنُب

(٥٥) بل أحْرَزَتْهُم ولكنْ للسيوف لكي ... لا يلتجى أَحَدٌ منهم إلى الهَربِ

(٥٦) أَضْحَتْ أبا لهب تِلكَ البروجُ وقد ... كانت بتعليقها حمّالةَ الحَطَب

(٥٧) وتمت النعمةُ العظمى وقد كملتْ ... بفتح صورٍ بلا حصرٍ ولا نَصَب

(٥٨) وجالت النارُ في أرجائها وَعَلَتْ ... فأطفأت ما بصدر الدين من كُرَبِ

(٥٩) وأفلتَ البحرُ منهم مَنْ يخبِّرُ مَنْ ... يلقاه من قومه بالويل والحرب

(٦٠) أختان في أنَّ كلاًّ منهما جمعتْ ... صليبةَ الكفر لا أختان في النَّسَبِ

(٦١) لما رأت أختها بالأمس قد خَرِبَتْ ... كان الخرابُ لها أعدى من الجرب

(٦٢) فاللهُ أعطاك مُلْك البحر إذ جمعتْ ... لك السعادة مُلْكَ البرّ فارْتَقِبِ

(٦٣) من كان مَبدؤه عكا وصور معاً ... فالصينُ أدنى إلى كفّيه من حلبِ

(٦٤) عَلا بكَ الملكُ حتى إنّ قُبتَه ... على الثريّا غدتْ ممدودةَ الطُّنُبِ

(٦٥) فلا بَرِحْتَ قريرَ العين مبتهجاً ... بكلّ فتحٍ مبينِ المنح مُرْتَقَبِ

*** وردت القصيدة مع اختلاف في ترتيب أبياتها في:**

نهاية الأرب: ٣١/ ص١٢٨ – ١٣٢، وتاريخ ابن الفرات: ٨/ ص١١٥ – ١١٨، وفوات الوفيات: ١/ ص٤١٠ – ٤١٣، والوافي بالوفيات: ١٣/ ص٢٥٤ – ٢٥٦، وكنز الدرر: ٨/ ص٣١٥ – ٣٢٠، وتاريخ ابن الجزري: ١/ ص٦١ – ٦٦. **ووردت أبيات منها في:**

تذكرة النبيه: ١/ ص١٣٨ – ١٣٩، وعقد الجمان: ٣/ ص٧٢ – ٧٤، والمنهل الصافي: ٥/ ص٢٧٣، والبداية والنهاية: ١٣، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة: ص٤٧٠ – ٤٧٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦٨١ – ٦٩٠ هـ): ص ٥٩ – ٦٢.

(٢)

- من الكامل -

قال في فتح عكا وما معها من الحصون:

(١) الشِّرْكُ أجلى وانجلى ظُلماتُه — والدينُ قرّ وأشرقَتْ قَسماتُه
(٢) والنصرُ أَلْوتْ بالفرنج رياحُه — من بعد ما فتكت بهم نسماته
(٣) هذا الّذي كانتْ تُحيِّله المنى — وتُحيلُه قدم العدا و ثَباتُه
(٤) هذا الذي كان الرجاءُ ببعْضِهِ — بعد النّفوس ولا تَصِحّ عداته
(٥) هبَّ الزّمانُ من الكرى من بعدما — طالتْ سِنيّ رُقاده وسناته
(٦) ما كان يحسن أن يجاورنا العدا — لو زال عن جفن الجهاد سُباته
(٧) والآنَ قدْ ذَهّبتْ بحمد اللـ (م) ـه عن أرض الشآم عِداتنا وعِداته
(٨) طمع العدوُّ بأنَّ عكا مَعْقِلٌ — تبلى الدهورُ ولا تلينُ قناتُه
(٩) فرمَوْهُمُ بالزَّحف وهو الصدمةُ الأو (م) لى فزلزل أرضَهم صدماتهُ
(١٠) وتَحكّمَ السيفُ الصقيلُ فأحرزتْ — بالقتل أسراب الظباء ظباته
(١١) بانوا فما بكت السماءُ عَلَيْهُم — في رَبْعهم بل أُحْرِقَتْ عَرَصاتُه
(١٢) ونمى إلى صور الحديثُ ببحرهم — إذ خُلِّقت بدمائهم صفحاته
(١٣) فَوَهَتْ عزيمةُ من بها وتفرّقوا — عن حِصنهم ونَفَتْهُم أبياته
(١٤) وسَرَتْ إلى صيدا الجيوش ورعبهم — تغني طلائع جندهم طلعاته
(١٥) فسلوا منازلهم وكلٌّ نحوها — قد عَبّرتْ عن حزنه عَبَراته
(١٦) وأتوا إلى البترون وهو مُعَمَّر — بمراكب صفّتْ بها حافاته
(١٧) فحووهم أسرى وهل ينجو امرؤٌ — قد قُيِّدت بعكوسه حركاته
(١٨) وأتى على بيروتَ يومٌ مُظلمٌ — تربو على أعوامه ساعاته
(١٩) أرداهمُ ما أضمروا من غِلّهم — والمرءُ يُتْبعهُ الردى تَبعاته
(٢٠) ويحصن عثليث المنى كَمُلَتْ وما — كانت بغير الوهم تُدْرَكُ ذاته
(٢١) وكذلك أنطرطوس أخلاها العدا — ومضت تميل بعنقه لفتاته

(٢٢) وجبيل ولّى أهلها فَرَقاً وكلٌّ (م) للفـراق تـرددت حسـراته

(٢٣) غَضِبَ الإلـهُ لِـدينه فَـأَتَتْهُمُ مـن حيـثُ لم يتوهمـوا سَـطَواته

(٢٤) وتفرّقـوا أيـدي سَـبَاً وسبـاؤهم جُمعـت بـرغمهم لنـا أشتاتـه

* وردت الأبيات أو بعضها في:

تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات ٦٨١- ٦٩٠هـ): ص٦٢، وتاريخ ابن الجزري: ١/ ص٦٦، وصورة الصليبيين في الأدب الأدبي: ص٥١٩ نقلاً عن مخطوطة درّة الأسلاك في دولة الأتراك ورقة ١٥٨.

(٣)

- من البسيط -

قال يمدح السلطان قلاوون ويذكر فتح حصن المرقب

(١) اللهُ أكبرُ هذا النصرُ والظّفَرُ ... هذا هو الفتحُ لا ما تزعم السِّيَرُ
(٢) هذا الذي كانت الآمالُ إن طمحتْ ... إلى الكواكب ترجوه وتنتظرُ
(٣) فانهضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد نَحَلَتْ ... شوقاً منابرها وارتاحت السُّرُرُ
(٤) كم رام قبلك هذا الحِصْنَ مِنْ مَلِكٍ ... فطال عنه وما في باعه قِصَرُ
(٥) وكيف تمنحه الأيامُ مملكةً ... كانَتْ لدولتك الغراء تُدَّخَرُ
(٦) غَرَّ العِدا منك حِلْم تحته هِمَمٌ ... لأشقر البرق من تحجيلها غُرَرُ
(٧) لها وإن أشبهتْ لطف النسيم سرى ... معنى العواصف لا تُبْقي ولا تذرُ
(٨) أوردْتَها المَرْقَبَ العالي وليسَ سِوى ... ماء المجرة في أرجائها نهر
(٩) كأنّه وكأنّ الجوُّ يكنفه ... وَهْمٌ تمثّله في طيها الفِكَر
(١٠) يختال كالغادة العذراء قد نظمت ... منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
(١١) لها الهلال سِوار والسُّها شَنَفٌ ... والقَلْبُ قُلبٌ ومُسْوَدُّ الدجى طُرَرُ
(١٢) تعلو الرياحُ إليه كي تحيطَ به ... خبراً وتدنو وما في ضمنها خبر
(١٣) ويومض البرق يهفو نحوه ليرى ... أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
(١٤) وليس يروى بماء السحب مصعدة ... إليه من فيه إلا وهو منحدر
(١٥) ففاجَأتْها جنود الله يقدمها ... من بأسك المنذران الخوفُ و الحذر
(١٦) فاستوطأتْ حَزْنَه واستقْربتْه ... وكان مكبواً حسيراً دونه البصر
(١٧) وأضرمت حوله ناراً لها لهب ... من السيوف ومن نَبْل الوغى شَرَرُ
(١٨) وأمْطَرتْه المجانيقُ التي نشأتْ ... ولم يكن قبلها يهمي به المطرُ
(١٩) وكم شكا الحصن ما يلقى فماأكترثت ... يا قَلْبَها أحديدٌ أنتَ أمْ حَجَرُ
(٢٠) وللنقوب دُبيبٌ في مفاصله ... تثيرُ سُقْماً ولا يبدو له أثَرُ
(٢١) أضحى به مِثْلَ صَبٍّ لا تبينُ به ... نارُ الهوى وهي في الأحشاءِ تَسْتَعِرُ

(٢٢) فحين أدرك فيه ما غرست به ... منها ولم يبق إلا أن يرى الثمر

(٢٣) ركبتَ في جندك الأولى إليه ضُحىً ... والنَّصرُ يتلوك منه جُنْدُك الأخر

(٢٤) قد زال تجلى قواه عن قواعده ... وخرّ أعلاه نحو الأرض يبتدر

(٢٥) وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا ... لديك من مضمرات النصر ما ستروا

(٢٦) فمال يهوي إليهم كلُّ ليثٍ وغىً ... له من البيضِ نابٌ والقنا ظُفُر

(٢٧) كأنهم وهم آساد معركة ... حمر براثنها عنَّتْ لها حُمُرُ

(٢٨) فاستصرخوا عمرى الفتح واعتصموا ... بعفوه ورجاه من له عُمُرُ

(٢٩) ولاذ بالصفح واستعطى الأمانَ لهم ... إحسانُ يقظان يعفو وهو مقتدر

(٣٠) فجدتَ حِلماً وعِلْماً أنهم خَول ... في حوزة القتل إن غابوا وإن حضروا

(٣١) وَمَنْ غدا وفِجاج الأرض قبْضَتُه ... فهُمْ وإنْ أُطلقوا منه فقد أُسِروا

(٣٢) فأُبرِزوا مثلَ رباتِ الحِجال إذا ... ما غضّ أبصارَهُن الخوفُ والخَفَر

(٣٣) وقد عَلاهُم شِعارُ الذُّعرِ منك فلو ... حكّمتَ بأسك في الأروح ما شَعَروا

(٣٤) وأصبح الحِصنُ غِلاًّ في نحورهم ... وعلةً ما لهم في وِرْدِها صَدَرُ

(٣٥) وقد تقلّد من أشْرافِ ملكك مَنْ ... به على أنجُم الجوزاءِ يفتَخَرُ

(٣٦) رفعت أعلاه أعْلاماً معودة ... أن لا يزال بها الإسلامُ ينتصر

(٣٧) تبدو بها غُرَرُ الطلعاتِ طالعةً ... فكلُّ ناحيةٍ من وجهها قمر

(٣٨) كسوته عند ما جَرَّدته حُلَلاً ... من المهابة يعشى دونها النظر

(٣٩) جدّدتَ ربعَ الهوى حتى غدت بَدَلاً ... فيه من الصّور المعبودة السّور

(٤٠) إن لم يُوَفِّ الورى بالشكر ما فَتَحَتْ ... يداك فالله والأملاكُ قد شكروا

* وردت الأبيات في: ذيل مرآة الزمان، ٤/ ص٢٥٦- ٢٥٩، وورد بعضها في النجوم الزاهرة: ٧/ ص٣١٧- ٣١٩.

(٤)

- من الطويل -

قال يمدح الأشرف قلاوون عند فتح قلعة الروم سنة ٦٩١هـ:

(١) لكَ الرايةُ الصفراءُ يقدمها النصرُ ... فمن كيقباذٌ إنْ رآها و كيخسرو

(٢) إذا خفقتْ في الأرض هُدبُ بُنودِها ... هوى الشركُ واستعلى الهدى وانجلى الثغرُ

(٣) وإن نُشِرتْ مثلَ الأصائل في وغىً ... جلى النقعَ من لألاءِ طلعتها البدرُ

(٤) وإن يمّمتْ زُرقَ العدا سار تحتها ... كتائبُ خُضْرٍ تحتها البيضُ والسُّمرُ

(٥) كأن مثار النّقع ليلٌ، وخَفْقُها ... بروقٌ، وأنت البدرُ والفلك البحر

(٦) لها كلّ يومٍ أين سار لواؤها ... هديةُ تأييدٍ يُقدّمها الدهر

(٧) وفَتْحٌ أتى في إثرِ فَتْحٍ كأنما ... سماءٌ بدت تترى كواكبها الزهر

(٨) فكم وَطِئَتْ طوعاً وكرهاً معاقلاً ... مضى الدهرُ عنها وهي عانسة بِكْر

(٩) فإنْ رُمْتَ حِصْناً سابَقتْك كتائبٌ ... من الرعب أو جيشٌ يقدمه النصر

(١٠) ففي كل قطرٍ للعدا وحصونهم ... من الخوف أسياف تُجَرَّدُ أو حَصْر

(١١) فلا حصنَ إلا وهو سجنٌ لأهله ... ولا جسدٌ إلا لأرواحهم قَبْرُ

(١٢) يظنّون أنّ الصبح في طُرّة الدجى ... عَجاجُ تُرابٍ فيه أسيافُك الحمرُ

(١٣) قَصَدْتَ حِمى من قلعة الروم لم يُبَحْ ... لغيرك إذ غرّتهم المغل واغتروا

(١٤) ووالوهم سراً ليخفوا أذاهم ... وفي آخر الأمر استوى السرّ والجهرُ

(١٥) وما المُغْلُ أكفاء فكيف سواهُم ... ولكنه غزوٌ وكلُّهمُ كفْرُ

(١٦) وأيضاً لإرغام التتار الذي بهم ... تمسكهم إذ قَهْرهم لهمُ قهرُ

(١٧) صَرفتَ إليهم همّةً لو صَرَفْتها ... إلى البحر لاستولى على مدّه الجزْرُ

(١٨) وَوَلّوا وقد ضاق الفضاء عليهمُ ... إلى أن غدا في الضيق كالخاتم البرُّ

(١٩) وما قلعةُ الروم التي حُزتَ فَتْحها ... وإنْ عَظُمت إلاّ إلى غيرها جِسْرُ

(٢٠) طليعة ما يأتي من الفتح بعدها ... كما لاح قبل الشمس في الأفق الفجرُ

(٢١) محجّبةٌ بين الجبالِ كأنها ... إذا ما تبدَّت في ضمائرها سِرُّ

(٢٢) تفاوت وصفاها فللحوتِ فيهما ... مجالٌ وللنّسرين بينهما وكْرُ

(٢٣) فبعضٌ رسا حتى علا الماءُ فوقهُ ... وبعضٌ سما حتى همَا دونَه القطرُ

(٢٤) يحيط بها نهران تبرز فيهما ... كما لاح يوماً في قلائده النحرُ

(٢٥) ويَعْصِمها العَذْب الفرات وإنّه ... لتحصينها كالبحر بل دونه البحرُ

(٢٦) سريعاً يفوت الطرْف جرْياً وحدُّه ... كريح سليمان التي يومها شهرُ

(٢٧) لها قُلّةُ لم ترض سُقْياً فراتها ... وفي روضها ماء المجرَّة ينجرُّ

(٢٨) تخاضُ متونُ السّحب فيها كأنها ... إذا ما استدارت حول أبراجها نهر

(٢٩) على هُضُبٍ صمّ يكلّم صخرها الـ ... حديد وفيها عن إجابته وَقر

(٣٠) لها طرق كالوهم أعيا سلوكها ... على الفِكْر حتى ما يُخيّلهُ الفكر

(٣١) إذا خطرتْ فيها الرياحُ تعثّرتْ ... أو الذرُّ يوماً زلّ عن متنه الذر

(٣٢) يضلُّ القطا فيها ويخشى عقابها الـ ... عقابُ ويهفو في مراقبها النسر

(٣٣) فصبّحتها بالجيش كالرّوض بهجةً ... صوارمه أنهارهُ والقَنا الزهر

(٣٤) وأبدعت بل كالبحر والبيضُ موجُه ... وجُردُ المَذاكي السفنُ والخوذُ الدر

(٣٥) وأغربت بل كالليل، عوجُ سيوفِهِ ... أهلّتُهُ، والنّبلُ أنجمهُ الزهر

(٣٦) وأخطأت لا بل كالنهار فشمسه ... جيوشك، والآصال راياتُك الصفر

(٣٧) ليوثٌ من الأتراك آجامها القنا ... لها كلَّ يوم في ذرى ظَفَر ظُفْر

(٣٨) فلا الريحُ تسري بينهم لاشتباكها ... عليهم ولا ينهلُّ من فوقهم قَطْرُ



(٣٩) يُرى الموتُ معقوداً بهُدْب نبالهم	إذا ما رماها القوسُ والنظر الشزر
(٤٠) ففي كل سرجٍ غُصْنُ بانٍ مهفهف	وفي كلِّ قوس مدَّ ساعده بدر
(٤١) إذا صدموا صمَّ الجبالِ تَزلزلتْ	وأصبحَ سهلاً تحت خيلهم الوعْرُ
(٤٢) ولو وردتْ ماءَ الفرات خيولُهم	لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر
(٤٣) أداروا بها سوراً فأضحت كخنصرٍ	لدى خاتم أو تحت منطقةٍ خصر
(٤٤) وأَجْرَوا إليها من بحار أكُفِّهم	سحابَ ردىً لم يَخْلُ من قطره قطر
(٤٥) كأنّ المجانيقَ التي قُمنَ حولها	رواعدُ سخطٍ وَبْلُها النارِ والصَّخْر
(٤٦) أقامتْ صلاة الحربِ ليلاً صخورها	فأكثرها شفعٌ وأقْتَلُها وَتْرُ
(٤٧) لها أسهمٌ مثل الأفاعي طوالها	قواتل إلاّ أنّ أفتكها البترُ
(٤٨) سهامٌ حكتْ سهْم اللحاظ لقتلها	وما فارقت جفناً وهذا هو السِّحرُ
(٤٩) تزور كناساً عندهم أو كنيسة	فلا دمنة تُبدي حذاراً و لا حَذْرُ
(٥٠) ودارت بها تلك النقوب فأشرقت	وليس عليها في الذي فعلت حَجرُ
(٥١) وشبّت بها النيران حتى تمزّقت	وباحت بما أخفَتْهُ وانهتك السترُ
(٥٢) فلاذوا بذيل العفو منك ولم تجبْ	رجاءهم لو لم يَشب قصدهم مكرُ
(٥٣) أمرتَ اقتداراً منك بالكفّ عنهم	لئلا يرى في عُذرهم لهم عذرُ
(٥٤) فراموا به أمرين تستر ما وهى	من السور أو عود التتار وقد فرّوا
(٥٥) لهمُ ويلهمُ إنّ التتار الذي رجوا	إعانتهم لم يحوها ربّهم فقرُ
(٥٦) ألم تسمعوا إذ لم يروا حال مغلهم	بحمص وقد أفناهم القتل والأسرُ
(٥٧) إن اندملت تلك الجراح فإنهم	متى ذكروا ما مرّ ينقضها الذكرُ
(٥٨) وما كره المُغْل اشتغالَكَ عنهمُ	بها عندما فرّوا ولكنهم سرّوا
(٥٩) فأحرزْتَها بالسّيفِ قَهْراً، وهكذا	فتوحك فيما قد مضى كلُّهُ قَسْر

(٦٠) غَدَتْ بشعار الأشرفِ الملكِ الذي ... له الأرض دار وهي من حسنها قصر

(٦١) وأضْحَتْ بحمدِ اللهِ ثَغْراً ممنَّعاً ... تبيد الليالي والعدا وهو مُفْتَرُّ

(٦٢) وكانت قَذىً في ناظرِ الدين فانجلى ... وذخراً لأهل الشِّرك فانعكَسَ الأَمْر

(٦٣) فيا أشرف الأملاك بُشراك غزوة ... تَحصَّل منها الفتح والذِّكْرُ و الأجرُ

(٦٤) ليُهنِك عند المصطفى أنّ دينه ... توالى له في يُمن دولتك النصرُ

(٦٥) وبَشراك أرضَيت المسيح وأحمدا ... وإنْ غضب التكفورُ من ذاك والكفرُ

(٦٦) فسِرْ حيثُما تختار فالأرض كلّها ... بحكمك والأمصار أجمعها مصرُ

(٦٧) ودُمْ وابْقَ للدنيا ليحيا بك الهدى ... وتزهى على ماضي العصور بك العصرُ

(٦٨) فلله في تخليد مُلكك نعمة ... علينا وآلاء يضيق بها الشكر

* وردت هذه الأبيات في:

كنز الدرر: ٨/ ص٣٣٤، والبداية والنهاية: ١٣/ ص٣٢٧- ٣٢٩، وتاريخ ابن الجزري: ١/ ص١١٢- ١١٥، وورد بعضها في عقد الجمان: ٣/ ص١١٨- ١١٩، وفوات الوفيات: ١/ ص٤١٤ - ٤١٥، والمنهل الصافي: ٥/ ص٢٧٤.



(٥)

ـ من البسيط ـ

قال من قصيدة يمدح الظاهر بيبرس ويصف خوضه الفرات لقتال التتار:

(١) سِرْ حيثُ شئتَ لكَ المهيمنُ جارُ	واحكُم فَطَوْعُ مرادك الأقدارُ
(٢) لم يبقَ للدين الذي أظهرْتَه	يا ركنه عند الأعادي ثارُ
(٣) لمّا تراقصت الرؤوس وحُرّكتْ	من مُطْرِبات قِسيِّك الأوتارُ
(٤) خُضتَ الفُراتَ بسابحٍ أقصى منىً	هُوجُ الصَّبا من نَعْلِه آثارُ
(٥) حَمَلَتْكَ أمواجُ الفُرات ومن رأى	بحراً سواكَ تُقِلُّه الأنهار
(٦) وتقطّعتْ فِرقاً ولم يكُ طودها	إذ ذاك إلا جيشُكَ الجرّار
(٧) رشّتْ دماؤُهم الصعيدَ فلم يَطِر	منهم على الجيش السعيد غُبارُ
(٨) شكرتْ مساعيكَ المعاقلُ والورَى	والتُّربُ والآسادُ والأطيارُ
(٩) هذي مَنَعتَ وهؤلاء حَمَيْتَهم	وسَقَيْتَ تلك وعَمّ ذا الإيسار
(١٠) فلأملأنَّ الدهرَ فيك مدائحاً	تبقى بقيتَ وتذهب الأعصارُ

* وردت الأبيات في:

عيون التواريخ: ٢/ ص١٠ - ١١، والنجوم الزاهرة: / ص١٥٧، وذيل مرآة الزمان: ٣/ ص٣. وورد بعضها في: فوات الوفيات: ١/ ص٢٤٠، والبداية والنهاية: ١٣/ ص٢٦١، والمنهل الصافي: ٣/ ص٣٥٧، والغيث المسجم: ٢/ ص٧٠، والوافي بالوفيات: ١٠/ ص٢١٠، وتاريخ الإسلام للذهبي: (حوادث ووفيات: ٦٧١-٦٨٠هـ)، ص٦.

(٦)

- من الطويل -

قال في فتح طرابلس ومدح السلطان قلاوون:

(١) علينا لمن أولاك نعمتَه الشكرُ ... لأنك للإسلام يا سيفه ذخرُ
(٢) وَمِنّا لك الإخلاصُ في صالح الدعا ... إلى من له في أمر نُصرتك النَّصْرُ
(٣) ولله في إعلاء مُلكك في الورى ... مرادٌ وفي التأييد يوم الوغى سِرُّ
(٤) ألا هكذا يا وارثَ الملكِ فَلْيَكُنْ ... جهادُ العِدا لا ما توالى به الدهرُ
(٥) ومِثل الذي أعطاك ربُّكَ فابتهلْ ... إليه يكون الفتح إن قِستَ والنصر
(٦) فإن تكُ قد فاتتكَ بدرٌ فهذه ... بما أنزلَ الرحمنُ مِن نصرةٍ بَدْرُ
(٧) نهضت إلى عَلْيا طرابلس التي ... أقلُّ عناها أن خندقها البحر
(٨) وقد ضمّها كالطوقِ إلا بقيةً ... كنحرٍ وأنتَ السيفُ لاح له نحر
(٩) ممنعةٌ بِكْرٌ وهل في جميع ما ... تَملّكْتَه إلا ممنَّعةٌ بِكْرُ ؟
(١٠) وكم من حصونٍ قد فتحتَ شواهقٍ ... مصابيحها في الأفق أنجُمُهُ الزُّهْرُ
(١١) ومن دون سُورَيْها عِقابٌ مَنيعةٌ ... تَزِلُّ إذا ما رامَ أوطاءها الذرّ
(١٢) وما برحتْ ثغراً ولكن على العدا ... عليها بحُكْم الدّهرِ فانْثغَر الثَّغْرُ
(١٣) وكانتْ بدارِ العلمِ تُعرفُ قبلها ... فَمِنْ أجلِ ذا للسيفِ في نَظْمِها نَثْرُ
(١٤) ولما غدَتْ لا فخر مثل افتتاحها ... أبى اللهُ إلاّ أن يكونَ له الفخْرُ
(١٥) ولا أجرَ عندَ الله مثلُ فِكاكِها ... فبُشراك يا مَنْ خَصّه ذلك الأجرُ
(١٦) فكم مرَّ مِنْ دهرٍ وما مسّها أذىً ... وكمْ رَاحَ مِنْ عُمْرٍ وما راعَها حَصْرُ
(١٧) وكم ليثُ غاب رامها في جيوشه ... وغابَ ولم يُحْرِزْ له ظَفَراً ظُفْرْ
(١٨) ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت ... تميد وقد أربى على بحرها البر
(١٩) وظلتْ لدى بحرين أنكاهما لها ... وأقتله البحر الذي جرّه مصر
(٢٠) وأقسمُ ما فاجأتَها بل تقدَّمتْ ... إليها سَرايا جَيشِكَ، الرُّعبُ والذُّعْرُ
(٢١) وأنذرها ما كان مِنْ فتحِ غيرها ... وحذّرها لو كانَ ينفعُها الحذرُ



(٢٢) وما كتمْتَها رَكْضَ جيشكَ أرضُها   ولا سكتتْ إلا وفي نفسها أمر

(٢٣) بَلى إنْ تكنْ لم تَسمَعِ الرَكْضَ كَوْنَها   مسالكها صُمٌّ، فذاك لها عُذرُ

(٢٤) كأنَّ المجانيقَ التي أوترتْ ضحى   عليها لها في شُمٌ أبراجها وِتْر

(٢٥) تُحلّق في جوّ السماء وترتمي   إليهم كما ينقَضُّ في حالقٍ نسرُ

(٢٦) أصابعُها تُومي إليهم فيسجدوا   فيُقبل منها دون سكانها الجُدرُ

(٢٧) وتُمطرهُم من كلٍّ قُطرٍ حِجارةً   لقدْ خابَ قومٌ جادَهم ذلك القَطْرُ

(٢٨) مسلّطةً وَرْهاءَ تقتل في العدى   وليس على أحجارها منهمُ حجرُ

(٢٩) وليست بحسناء العرانين إن بَدَتْ   لناظرها يوماً وفي قَلْبِها صَخْرُ

(٣٠) لها شررٌ كالقصر ترمي به العدا   فلا برج يستعصي عليه ولا قَصْرُ

(٣١) تَخلّقَ وجهُ السورِ منهمْ كأنّما   غَدَتْ وعليها في الذي فعلتْ نَذْرُ

(٣٢) بروضِ الثّرى كالرّاحِ فَهْي بلُطفها   يَلينُ لها القاسي ويستسلمُ الوَعْرُ

(٣٣) إلى أنْ غَدَتْ فوقَ الفَضا وهي تَحْتَهُ   مُعلّقةٌ في الجو ليس لها قعرُ

(٣٤) ومن تحتها تلك الثقوب كأنها   إذا ما تمشّت في ضمير الثرى سِرٌّ

(٣٥) فزَلْزلتها بالركض فانهدّ رُكْنُها   ولم يبقَ من دونِ المنايا لها سِتْرُ

(٣٦) وألقتْ أعاليها المجانيقَ تحتَها   ففي كلِّ قطرٍ من خنادقها جِسْرُ

(٣٧) فهاجمتَها في أوّل الجيش فاحتوى   عليها وباقي الجيش خَلْفَكَ لم يدروا

(٣٨) وأطلقتَ فيها طائرَ السيفِ فاغتدى   وليس له إلا رؤوسهم وَكْرُ

(٣٩) كأنّ شعاعَ الشمسِ فوقَ احمراره   على زرقةٍ فيه لناظره جَمْرُ

(٤٠) لقيتَهمُ صُفْرَ الوجوه فما أتى   لها الليل إلاّ وهي من دَمِهمْ حُمْر

(٤١) ولاذوا ببابِ البحرِ منكَ فَما نَجا   إليه سوى مَنْ جَرّهُ من دمٍ نهْر

(٤٢) ولم ينجُ إلاّ من يُخبّرُ قومه   ليدروا وإلاّ مَنْ تَغَمّدهُ الأسرُ

(٤٣) فلله كم بيضٍ وسُمْرٍ كواعبٍ   على رَغْمهم قد حارتْ البيضُ والسُّمرُ

(٤٤) وكم فارسٍ من قيدهِ ودمائه   مَرَاكِبُه دُهْمٌ وألوانُها شُقْرُ

(٤٥) تميلُ كما مال النزيف وإنّما   به سكراتُ الخوفِ والموت لا السُّكْرُ

(٤٦) تَبَلّجَ ثُغْرُ الدينِ فيها وأشرقتْ   أسِرّتُهُ وانجابَ عن نورهِ الكُفْرُ

(٤٧) وولّى ضَلالُ الشركِ عنها ووجهُهُ عَبوسٌ ووافاها الهُدى ولها بِشْر

(٤٨) وفي نَعْتِكَ " المنصورِ" سرٌ لَوَ أنّهُمْ وعوهُ، لما قاموا أمامَكَ بلْ فَرُّوا

(٤٩) وفي هُلكُهمْ يومَ الثلاثا إشارةٌ إلى أنّ في الداريْنِ تثليثَهم خُسْرُ

(٥٠) أما سَمِعوا إذ لم يَرَوا كَسْرَك العدا بِحمْصَ إلى أن ليس يُخشى لهمْ جبرُ

(٥١) وكانوا كموجِ البَحْرِ لا حَدٌّ يحتوي عليهم ولا يأتي على عدِّهِمْ حَصْرُ

(٥٢) وكان لهم في الأرض صِيتٌ وسُمْعةٌ فلم يبقَ في الدنيا لهم بعدها ذِكْرُ

(٥٣) بلى سَمِعوا أخبارَ جيشِكَ قَبْلَها فلما التقوهُ صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

(٥٤) أمدّهمُ جيرانُهم بحماتهم ويَعْجَبُ ذاك المَدُّ من دَأْبِهِ الجَزْرُ

(٥٥) فلم يُغْنِ عنهم ذاك شيئاً و لو أتوا إليهم كموج البحرِ أفناهُمُ البَحرُ

(٥٦) قسَمْتَهُمُ شطرين غيرِ غريقهمْ فللسيف شطرٌ والقيودِ لها شطر

(٥٧) مَحَوْتَ شِعارَ الكُفْرِ عَنْها فما عَسَى يقومُ به في وصف أفعالك الشِعْرُ

(٥٨) وماذا به يُثني عليكَ مفَوَّهٌ ولا قدرهُ يَأتي بذاك ولا عُشْر

(٥٩) ولكنْ دعاءٌ وابتهالٌ فإنّه يُقِرُّ على رغْم الأعادي لك النَصْر

(٦٠) وإن تملكِ الأقطارَ شَرْقاً ومغرباً فلا بَرَّ يستعصي عليك و لا بَحرُ

* وردت الأبيات أو بعضها في:

كنز الدرر: ٨/ ص٢٩٥، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات ٦٨١-٦٩٠هـ): ص٢٩-٣٠.

(٧)

ـ من الكامل ـ

قال يرثي المنصور قلاوون بقصيدة أوّلها:

(١) مَلِكٌ مضى لسبيله، وسَبِيلُه ... في نُصرة الإسلام حُكْمٌ يُقْتَفى
(٢) المالك المنصور أكرم من جفا ... طيب الرّقاد إلى الجهاد وأوجفا
(٣) سل يومَ حِمْصَ عن الألوف وقد سطا ... في....هل بعد ذاك تألفا
(٤) وانظر تجد تسعين ألفاً منهم ... ذهبوا كما حَكَمت صوارمه جفا
(٥) وغدوا وطاءً للورى فلكم ترى ... من حافرٍ قد داس خداً مترفا
(٦) والمرقب العالي الذي سامى السما ... فغدا على نهر المجرّة مشرفا
(٧) وكذا طرابلس التي لم يَرْجُها ... ملكٌ سواه إذا تنبّه أو غفا
(٨) ولكمْ أباد عدىً وكَمْ أبدى يداً ... وندىً وجدّدَ رَسْم مكرمةٍ عفا
(٩) وأقال معتذراً وأغنى راجياً ... وأعان ملتجئاً وسامح مسرفا
(١٠) طوبى له حازت يداه وقد مضى ... ما أقرضا في طاعة أو أسلفا
(١١) فتلقّت الأملاكُ مَقدمَ روحِه ... بأجلّ مما كان فيه وأشرفا

* وردت الأبيات أو بعضها في:

صورة الصليبيين في الأدب العربي: ص: ٥٢٢، وفي الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي: ص٨١، وهي في كلا الكتابين منقولة عن مخطوطة درّة الأسلاك في دولة الأتراك: ص٩٤.

(٨)

ـ من البسيط ـ

قال يمدح حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بدمشق:

(١) أطاعك الدهرُ فَأْمُرْ فهو ممتثلُ ... واحكُم فأنت الذي تُزهى به الدُّولُ
(٢) واشرُف فلو ملكتْ شمسُ النهار عُلاً ... ملكتها لم يزدْ في سَعدها الحمل
(٣) وانهض بعزمك فهو الجيشُ يقدُمُه ... من بأسك المُنذران الرعبُ والوجلُ
(٤) وسِرْ به وَحْدَه لا بالجيوش و إنْ ... لم يحوها الأرحبان السهلُ والجبلُ
(٥) تلقى الفتوحَ وقد جاءتك وافدةً ... يحثّها المُزعجان الشوقُ والأملُ
(٦) قد أرهف الملكُ المنصور منك على ... جيش الأعادي حُساماً حدُّه الأجلُ
(٧) تهوى أسِنَّتُه بيضَ النحور فمن ... آثارها الحمرِ في أجيادها قُبلُ
(٨) تدمَى سُطاهُ وتندى كفّه كرماً ... كالغيثِ يهمي وفيه البَرقُ يشتعلُ
(٩) سَلْ يومَ حمصَ جيوشَ المُغل عنه وقد ... ضاق الفضاءُ بهم واستُدّتِ السبُل
(١٠) والهامُ تسجدُ والأجسام راكعةٌ ... والموت يُقْبِلُ و الأرواح تَرتحلُ
(١١) والبيضُ تُغمدُ في الأبطال عارية ... وتنثني و عليها منهم حُلَلُ
(١٢) والخيلُ تحفى وتخفى في العجاج فإن ... بدت غَدت وهي بالهامات تنتعلُ
(١٣) يُخبرك جمعُهُمُ والفضلُ ما شَهِدتْ ... به العِدى أنهُ ليثُ الشَّرى البطلُ
(١٤) وأنه خاض في هيجائها وجَلا ... غمارها واصطلاها وهي تشتعل
(١٥) وصدّهم وهمُ كالبحرِ إذ صَدموا ... ببأسه وحَمى الإسلام إذ حملوا
(١٦) فمزّقتهم سُطاه ذا يسير وذا ... عانٍ أسير و ذا في الترب مُنجدلُ
(١٧) كأنّ أسهمه والموت يبعثها ... بين المنايا وأرواحُ العِدى رُسُل
(١٨) كأنّ هاربهم والخوفُ يطلبُهُ ... يبدو لديه مثالٌ منه أو مثلُ
(١٩) فإن تنبّه يوماً راعه وإذا ... أغفى جلَتْهُ عليه في الكرى المُقَلُ
(٢٠) وعادَ والنصر معقودٌ برايته ... والمُغْلُ ما بين أيدي خَيْله خَوَلُ
(٢١) قد جمّعَ اللهُ فيه كلَّ مفترقٍ ... في غيره فهو دون الناس مُكتمل

(٢٢) فعن نَدى يده حَدِّث ولا حَرجٌ ... اليمُّ تمَّ وعمَّ العارضُ الهَطلُ

(٢٣) أستغفرُ اللهَ أينَ الغيثُ منفصلاً ... من برّه وهو طول الدّهر متصل

(٢٤) عطاءُ من ليس يثني فيضَ راحتِه ... عن النّدى سأمٌ يوماً و لا مَلل

(٢٥) مَنْ حاتمٌ عَدِّ عنه واطّرِحْ فبه ... في الجود لا بسواه يُضربُ المثلُ

(٢٦) أين الذي برُّه آلالاف يتبعها ... كرائم الخيل ممن برُّه الإبِلُ

(٢٧) لو مُثّل الجود سَرْحاً قال حاتمهم ... لا ناقة لي في هذا ولا جمل

(٢٨) أحاط بالناس سورٌ من كفالته ... ظِلٌ لهم وعلى أعدائه ظُلَلُ

(٢٩) أضحوا به في مَهادِ الأرض يكلأهم ... من رأفةٍ بهم يقظان إن غفلوا

(٣٠) يحنو عليهم ويعفو عن مسيئهم ... حلماً و يصفحُ عنهم إن هم جهلوا

(٣١) وأعْدَلُ الناسِ أياماً فلا شططٌ ... في الحُكْمِ منه ولا حيْفٌ و لا مَلل

(٣٢) أطاع خالقه في ما تقلّده ... فما عن الدين بالدّنيا له شُغُل

(٣٣) إن رام صيداً فما الكِنديُّ مفتخراً ... بالخيل في الصّيْدِ إلاّ مُطرقٌ خجل

(٣٤) بكلّ طِرفٍ يَفوتُ الطّرف منظرُهُ ... لا يأخذ الصيد إلاّ وهو مُنفتِلُ

(٣٥) في فتيةٍ من حُماة التّرك ليس لهم ... إلاّ التعلّم من إقدامه أمَلُ

(٣٦) إن يقتلوا الصيد في أيدي الجوارح بل ... جوارح اللّحظ إن يرموا بها قتلوا

(٣٧) عزّاً وصوناً لمن دان الأنامُ له ... حتى السهامُ إلى أغراضه ذُلل

(٣٨) أو حاول اللّعب المعهود بالكرة الـ ... ـتي بها تستعين البيضُ والأسَلُ

(٣٩) حيث السوابق تجري في أعِنَّتِها ... طوعاً وتُعطفُ أحياناً فتمتثلُ

(٤٠) كأنه وهي والبُرديُّ في يده ... على الجواد وكلٌّ نحوها عجل

(٤١) شمسٌ على البرق حاز البدر يرفعه ... عن الهلال فتعلو ثم تَسْتفِل

(٤٢) لا زال بالملك المنصور منتصراً ... ما مال بالدوح غُصنُ البانةِ الثَمل

* وردت القصيدة في الوافي بالوفيات: ٢٤/ ص٣٨٧- ٣٨٩، وورد مطلعها في النجوم الزاهرة: ٨/ ص١٠٨.

(٩)

- من الطويل -

وقال في انتصار الظاهر بيبرس على المغول سنة ٦٧٥هـ:

(١) كذا فلتكن في الله تمضي العزائم ... وإلا فلا تجفو الجفونُ الصوارمُ

(٢) عزائمُ حاذتها الرياح فأصبحتْ ... مخلّفةً تبكي عليها الغمائمُ

(٣) سَرتْ من حِمى مصر إلى الروم فاحتوتْ ... عليه وَسُوراه الظُّبا واللهاذم

(٤) بجيش تَظَلّ الأرض منه كأنها ... على سعة الأرجاء في الضيق خاتَمُ

(٥) كتائب كالبحر الخِضَمّ جِيادُها ... إذا ما تهادتْ موجُه المتلاطمُ

(٦) تحيط بمنصور اللواء مظفّرٍ ... له النصرُ والتأييدُ عبدٌ و خادم

(٧) مليك يلوذ الدين من عزماته ... بركن له الفتحُ المبينُ دعائِمُ

(٨) مليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه ... حَنينٌ كذا تهوى الكِرامَ الكرائم

(٩) فكم وَطِئَتْ طوعاً وكرها جياده ... معاقل قرطاها السُّها و النعائم

(١٠) مليكٌ له بالدينِ في كل ساعةٍ ... بشائرُ للكفّار منها مآتم

(١١) جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى ... ثغوراً بكى الشيطانُ و هي بواسم

(١٢) إذا رام شيئاً لم يَعُقْه لبعدها ... وَشُقّتِها عنه الأكامُ الطواسِم

(١٣) فلو نازع النَّسْرَين أمراً لَناله ... وذا واقع عجزاً و ذا بعدُ حائم

(١٤) ولما رمى الرومَ المنيعَ بخَيلهِ ... ومن دونه سَدٌ من الصخرِ عاصِمُ

(١٥) يروم عُقاب الجوّ قطع عِقابه ... إليه فلا تقوى عليها القوادم

(١٦) غدا وهو من وقع السنابك داثر ... تطاه فتستوطى ثراه المناسم

(١٧) ولما امتطَتْ أعلاه أعلام جيشه ... وقد لاح فيها للفلاح علائم

(١٨) تراءتْ عيونُ الكافرين خِلالها ... بروقَ سيوفٍ صوبهن الجماجم

(١٩) فلم يثْنِ عنها الطّرفَ خوفاً وحيرةً ... ومالت على كره إليها الغلاصم

(٢٠) وأبرزت الأرض الكمين و قد علت ... عليه طيور للحِمام حوائم

(٢١) فأهوى إليهم كل أجرد طائر ... تطير به نحو الهياج القوائم

(٢٢) يخوض الوغى لم تثنه اللجم راقصاً ... دلالاً ويغدو و هو في الدمّ عائم

(٢٣) وسالت عليهم أرضهم بمواكب ... لها النّصر طوعٌ والزّمان مُسالِمُ

(٢٤) أدارت بهم سوراً منيعاً مُشَرَّفاً ... بسُمر العوالي ما له الدّهْرَ هادم

(٢٥) من الترك أمّا في المغاني فإنهم ... شموس وأما في الوغى فضراغم

(٢٦) غدا ظاهراً بالظّاهر النصرُ فيهم ... تبيد الليالي والعِدا وهو دائم

(٢٧) فأهْوَوا إلى لثم الأسنة في الوغى ... كأنهم العشاقُ و هي المباسم

(٢٨) وصافحت البيضَ الصّفاح رقابُهم ... وعانقت السُّمرَ القدودُ النّواعمُ

(٢٩) فكم حاكمٍ منهم على ألفِ دارع ... غدا حاسراً والرّمح في فيه حاكم

(٣٠) وكم ملك منهم رأى وهو موثَقٌ ... خزائنَ ما يحويه و هي غنائم

(٣١) توسوست السُّمْرُ الدِّقاقُ فأصبحتْ ... لها من رؤوس الدّارعين تمائمُ

(٣٢) فيا ملكَ الإسلامِ يا مَنْ بنصره ... على الكفرِ أيّامُ الزّمان مواسمُ

(٣٣) لِتَهْنَ بفتح سار في الأرض ذِكْرُه ... سرى الغيث تحدوه الصَّبا والنّعائمُ

(٣٤) بذلتَ له في الله نفساً نفيسة ... فوافاك لا يثنيه عنك اللوائمُ

(٣٥) ولما هزمْتَ القومَ ألقتْ زِمامها ... إليك الحصونُ العاصياتُ العواصمُ

(٣٦) ممالكُ حاطتهْا الرّماحُ فكَمْ سَرَتْ ... على رجل فيها الرياح النّواسمُ

(٣٧) تبيتُ ملوكُ الأرضِ وهي مُناهُمُ ... وليس بها منهم مع الشوق حالمُ

(٣٨) و لولاك ما أوْمى إلى بَرْقِ ثَغْرِها ... لعزة مثواه من الشام شائمُ

(٣٩) اقمت لها بالخيل سوراً كأنها ... أساور أضحت وهي فيها معاصمُ

(٤٠) فلا زلت منصور اللواء مؤيداً ... على الكفر ما ناحت وأبكت حمائمُ

* **وردت الأبيات في**: عيون التواريخ: ٢١/ ص١٠٢ – ١٠٤، وذيل مرآة الزمان: ٣/ ص١٧٨، والوافي بالوفيات: ١٠/ ص٢١٠، وورد بعضها في: النجوم الزاهرة: ٧/ ص١٧٠ – ١٧٢، والمنهل الصافي: ٣/ ص٤٥٧.

ثانياً: المقطّعات

(١)

- من الكامل -

قال من قصيدة في فتح حصن المَرْقَب:

(١) ولَقدْ ذكرتُكِ والحياةُ كريهةٌ — والموتُ يرقب تحت حِصْنِ المرقَبِ

(٢) والبيضُ من خَلَلِ السِّهام كأنها — برقٌ تألّق في غمامٍ صيِّبِ

(٣) والحِصْنُ من شفق الحديد كأنه — عذراءُ ترفلُ في رداءٍ مُذهَبِ

(٤) سَامَى السماءَ فمن تطاول نحوه — للسَّمعِ مسْترقاً رماه بكوكب

(٥) والمنجنيقُ كأنّه مِنْ رَمْيِه — حيثُ استدارتْ كَوكبٌ في كَوْكَبِ

(٦) والموتُ يلعبُ بالنفوسِ وخاطري — يلهو بطَيِّبِ ذِكْرِكَ المسْتَعذَبِ

* وردت الأبيات في:

الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين: ٢/ ص١٨٦، وصورة الصليبيين في الأدب العربي: ص٥١٩، والحروب الصليبية وأثرها على الشعر العربي: ص٧٥ نقلاً عن مخطوطة درة الأسلاك في دولة الأتراك: ج١، ورقة ١٢٥. وورد بعضها في: الغيث المسجم: ٢/ ص٤١، وكنز الدرر: ٨/ ص٢٧.

(٢)

- من الطويل -

قال لمّا شاهد النيران بجوانب عكا، وقد تساقطت أركانها وتهدّمت جدرانها:

(١) مَـرَرْتُ بعكـا بعـد تخريـبِ سُـورِها وزنـدُ أُوارِ النـارِ في وسـطها وار

(٢) وعاينتُهـا بعـد التنصُّر قـد غَـدَتْ مجوسيـةَ الأبـراجِ تـسجدُ للنـار

ورد البيتان في: تاريخ ابن الفرات: ٨/ ص١٥، وتذكرة النبيه: ١/ ص١٣٨، ونهاية الأرب: ٣١/ ص١٢٨، وفي الحروب الصليبية وأثرها على الشعر العربي: ص٥٨، نقلاً عن مخطوطة درة الأسلاك : ص٢٠٥.

(٣)

- من البسيط -

قال من قصيدة يمدح:

(١) ما الحربُ إلاّ الذي تدمى به اللّممُ والفخـرُ إلاّ إذا زانَ الوجـوهَ دمُ

(٢) ولا ثبـاتَ لمـن لـم تلْـقَ جبهتُـه حـدّ السيوفِ ولا يُثنـى لـه قَـدَمُ

(٣) يـا باسـم الثغـر والأبطـال عاليـةٌ وخـائض البحـر والهيجـاء تـضطرم

(٤) ليهنـك الفتح والنصر الذي اجتمعا فقـد تـساوت لـدينا فيهمـا الـنِّعم

(٥) كـأن سـيفك مـاء في تلهُّبـه والـسّهم طـير علـى جنْبيـه يـزدحم

(٦) كـأنّ عزمـك والماء المحيط بهـم بحـران موجهمـا في الجـو يـضطرم

* الأبيات أو بعضها في: المنهل الصافي ٢/ ص٩٩، وشعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام: ص٣٣٧.

(٤)

- من الطويل -

قال من قصيدة يمدح السلطان محمد بن قلاوون ويصف جموع المغول الذين حاصروا الرحبة سنة ٧١٢هـ:

(١) ظَفِرْتَ بأجر الغزو والحجّ في عامِ	فَلَمْ يُنضَ درعُ الحربِ إلاّ لإحْرام
(٢) أتوا كالدّبا ما بين كرْجٍ وأَرْمَنٍ	ومُغْلٍ وأتراكٍ وعُربٍ وأعجام
(٣) وفي الرحبة الغراء أيّةُ آيةٍ	بها لأنوف الكفر أعظمُ إرغام

* وردت الأبيات أو بعضها في:

تذكرة النبيه: ١/ ص٤٦، وأصداء الغزو المغولي في الأدب العربي: ص٦٩، نقلاً عن مخطوطة درة الأسلاك في دولة الأتراك: ١/ ص٣٠١.

المصادر والمراجع

ابن أبي الإصبع المصري (زكي الدين بن أبي الإصبع ت٦٥٤هـ):

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، ط١، القاهرة، ١٩٦٣.

أحمد، أحمد بدوي، (الدكتور):

- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٢، القاهرة.

ابن إياس الحنفي (أبو البركات محمد بن أحمد، ت٩٥٢هـ):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.

البغدادي(إسماعيل باشا):

- هدية العارفين، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول.

ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف ت٨٧٤هـ):

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: نبيل محمد عزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٢.

أبو تمام (حبيب بن أوس ت٢٣١هـ):

- ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، ط٥، دار المعارف.

الثعالبي (أبو منصور ت٤٢٩هـ):

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، ١٩٥٦.

الجرجاني (علي بن عبد العزيز ت ٣٩٢ هـ)

- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٦ .

ابن الجزري (شمس الدين محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ):

- تاريخ حوادث الزمان، ووفيات الأكابر والأعيان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

ابن حبيب (الحسن بن عمر ت٧٧٩هـ):

- تذكرة النبيه في أيام المنصور قلاوون وبنيه، تحقيق: محمد أحمد أمين، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦.

ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر ت٨٣٧هـ):

- ثمرات الأوراق في المحاضرات، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، طبعة بولاق، ١٢٧٣هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن حجر ٨٥٢هـ):

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة دار الجيل، بيروت.

الحلي (صفي الدين أبو الفضل عبد العزيز ٧٤٩هـ):

- ديوان صفي الدين الحلي، تحقيق: د. محمد حوّر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك):

- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١.

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ):

- تاريخ الإسلام (حوادث سنوات ٦٨١هـ - ٦٩٠هـ)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٠.
- من ذيول العبر، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مطبعة حكومة الكويت.

ابن رجب البغدادي (عبد الرحمن بن شهاب الدين ت ٧٩٥هـ):

- الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ):

- المستقصى في أمثال العرب، ط٣، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٧١.

ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤هـ):

- عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية.
- فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤.

أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ):

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، طبعة دار الجيل، بيروت.

الشهاب محمود الحلبي (محمود بن سليمان الحلبي ت ٧٢٥هـ):

- حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.

شوقي ضيف (الدكتور):

- البحث الأدبي (طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره)، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٢.
- الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، ط٢، دار المعارف.

الشوكاني (محمد بن علي ت١٢٥٠هـ):

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ):

- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٩٨.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥.
- الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرينغ، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩١.

الطباخ (محمد راغب الطباخ الحلبي):

- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية بمدينة حلب، ط١، ١٩٢٥.

ابن طباطبا العلوي (أبو الحسن محمد بن أحمد ت ٣٢٢هـ)

- عيار الشعر، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦.

عبد القادر أبو شريفة (الدكتور):

- صورة الصليبيين في الأدب العربي، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، مكتبة الجامعة الأردنية، ١٩٧٨.

ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

عمر موسى باشا (الدكتور):

- ابن نباتة المصري(شاعر أهل المشرق)، ط٣، دار المعارف بمصر.
- تاريخ الأدب العربي(عصر المماليك)، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٨٩.

عمر فروخ (الدكتور):

- تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط٦، بيروت، ١٩٩٧.

العيني (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥هـ):

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩.
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: د. هانس آرنست، دار إحياء ابن الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم ت٨٠٧هـ):

- تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأمير كافية، بيروت، ١٩٤٢.

فوزي محمد أمين (الدكتور):

- أدب العصر المملوكي الأول (قضايا المجتمع والفن)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣.

ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق البغدادي ت ٧٢٣هـ):

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، صحّحه: مصطفى جواد، المكتبة العربية، بغداد، ١٣٥١هـ.

ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد ت ١٠٢٥هـ):

- ذيل وفيات الأعيان، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، ط١، القاهرة، ١٩٧١.

القلقشندي (أبو العباس أحمد ت٨٢١هـ):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ):

- البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣.

مأمون فريز جرار (الدكتور):

- أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، ط١، عمان، ١٩٨٣.

المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين ت ٣٥٤هـ):

- ديوان المتنبي، تحقيق: د. عمر الطباع، شركة دار الأرقم للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٧.

محمد زغلول سلام (الدكتور):

- الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر.

محمد سيد كيلاني:

- الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، ط٢، ١٩٨٤.

محمد كرد علي:

- خطط الشام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩.



محمود إبراهيم (الدكتور):

- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، دار البشير، ط٢، عمان، ١٩٨٨.

محمود أبو الخير (الدكتور):

- الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين، دار الإسراء، ط١، عمان، ٢٠٠٣.

محمود رزق سليم (الدكتور):

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٢.

المقريزي (أحمد بن علي ت٨٤٥هـ):

- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، نشر مكتبة الآداب، القاهرة.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٧.

الميداني (أحمد بن محمد بن أحمد ت٨١٥ هـ):

- مجمع الأمثال، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، ط٢، بيروت، ١٩٨٧.

ابن نباتة المصري (جمال الدين محمد بن محمد ت٧٦٨هـ):

- ديوان ابن نباتة المصري، مطبعة التمدن بعابدين، القاهرة، ١٣٢٣هـ.

النبهاني (يوسف بن إسماعيل ت ١٣٥٠هـ):

- المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٢٠هـ.

النعيمي (عبد القادر بن محمد ت٩٢٧هـ):

- الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت٧٧٣هـ):

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ.

ابن هانئ الأندلسي(محمد بن هانئ الأندلسي ٣٦٢هـ):

- ديوان ابن هانئ الأندلسي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

الهرفي، محمد بن علي (الدكتور):

- الحروب الصليبية وأثرها على الشعر العربي، النادي الأدبي بالرياض، ١٩٨٠.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ):

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.

ياقوت الحموي (أبو عبد الله بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ):

- معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت.

يحيى الشامي (الدكتور):

- موسوعة شعراء العرب، دار الفكر العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

يوسف إليان سركيس:

- معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، مطبعة سركيس بمصر، ١٩٢٨.

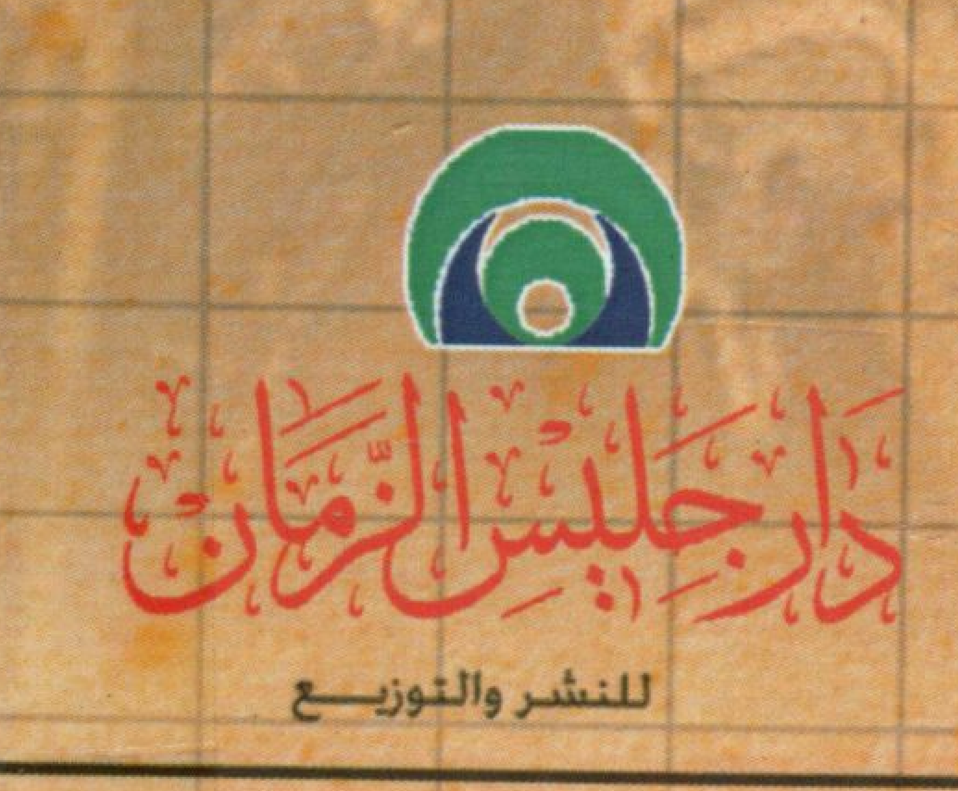
اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد ت ٧٢٦هـ):

- ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند، ١٩٦٠.

أصداء الغَزْوَيْن الصّليبيّ والمغوليّ في شِعْر الشِّهاب محمود الحَلَبيّ

(644- 725 هـ)





الأردن - عمان
شارع الملكة رانية - مقابل كلية الزراعة - عمارة العـ...
Tel. : +962 6 5343052 - Fax : +962 6 5356219
E-mail: dar.jaleesalzaman@yahoo.com
dar.jaleesalzaman@hotmail.com


ISBN 9957-81-085-5
9 789957 810856